روح الإسلام

جمـال البنــا

الطبعة الثالثة

المحتويات

- مقدمة الطبعة الثالثة
- مقدمة الطبعة الأولى

الباب الأول
لماذا الإسلام

- الفصل الأول: لأن التقدم المادى - وحده - لا يكفى
- الفصل الثانى: لأن الإسلام أفضل صـور الالتزام
- الفصل الثالث: لأن الإسلام أبرز مقومات الشخصية

الباب الثانى
مكونات الإسلام

- الفصل الرابـع: الإسلام عقيدة
- الفصل الخامس: والإسلام عبادة
- الفصل السادس: والإسلام خـلق
- الفصل السابع : والإسلام شريعة
- الفصل الثامن : والإسلام أيضا تراث

إهـــــداء

إلـــــــى...

الأخ العزيز المهندس/ عبد الله البنا

الذى مثل روح الإسلام

بشــراً ســوياً...

جمال البنا

مقدمة الطبعة الثالثة

لهذا الكتاب معزة خاصة. إذ هو يمثل بداية عودتى إلى "الشأن" الإسلامى الذى كنت قد بدأته عام 1946 عندما كتبت فصل "فهم جديد للدين" فى كتاب ديمقراطية جديدة. ثم عرضت له فى كتاب "موقف المفكر العربى تجاه المذاهب السياسية المعاصرة" سنة 1957. ثم شغلتنى الظروف عنه عندما تكونت الثقافة العمالية أوائل الستينات وبدأت تنظيم وتنهيج الثقافة العمالية وطلب المسئولون عنها منى تقديم كتابات وإلقاء محاضرات عن التنظيم والبنيان النقابى وتاريخ الحركة النقابية فى بعض دول العالم، وقد استغرق العمل فى هذا المجال – تأليفا وترجمة – ومحاضرات عشرة أعوام أخذتنى عن موضوعى الأثير. حتى لم استطع صبراً فكان "روح الإسلام"...

وعندما أفكر الآن أجد أن مشغوليتى عن الكتابة الإسلامية الخالصة طــوال هــذه المــدة، وعكــوفى على الحركة العمالية والنقابية أســهم فى إثــراء تفكــيرى الإســلامى وتوسيع آفاقه وإعطائه إحدى الخصائص التى يتميز بها عن الفكر الإسلامى التقليدى.

وعندما صدر الكتاب عام 1972، ظفر بإعجاب الكثيرين وقال لى أحد النقاد ما من واحد يقرأه حتى يقع فى حبه!، وأذكر أن الدكتور أحمد النجار رحمه الله، وهو رائد البنوك الإسلامية أيقظنى فى موهن من الليل ليخبرنى بأنه وجد فى هذا الكتاب كل ما كان يفكر فيه بالنسبة للإسلام، وطلب أن يتولى الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية إعداد طبعة خاصة لتكون أحد المراجع فى الدراسات "لكوادر" البنوك الإسلامية، وقبلت بالطبع، وظهرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب..

وفى مرحلة لاحقة أعجبت به السيدة منى عبد الله التى تتعاون معى تعاوناً وثيقاً صادراً عن فهم عميق ومشاركة فكرية تامة حتى لقد بدأت – رغم مشاغلها العديدة – فى ترجمة بعض فصوله إلى الفرنسية واقترحت علىّ إعادة طبعه.

ولم أكن أفكر فى طبع كتاباتى القديمة لأنى اعتقدت إن الكتب الأخيرة التى تمثل التطور الفكرى الأخير تغنى عنها، وأنها قد ُتظهر هذه الكتابات الأولى كما لو كانت ساذجة، ولكن ظهر أن الأفكار التى تضمنت هذه الكتب الأولى لها جمهور كبير لعله أكبر من الجمهور الذى يستوعب الكتابات الأخيرة، ففيها بساطة وسهولة، وهى تقدم موضوعها بصورة سائغة مفهومة تبرأ من التعقيد والتحقيق الذى تطلبته موضوعات مثل "نحو فقه جديد" وغيره فضلاً عن أن أفكارها تتوفر فيها الجدة والأصالة بمعنى أن مستواها فى هذه لا يقل عن مستوى الكتابات الأخيرة.

عامل أخر شجعنى على إعادة طبعه، ذلك أنه يمثل درجة من درجات تطورى الفكر، وكيف استطعت أن أخلص من معمعة المشاغل – ولو جزئيا – لأقدم هذه الإضافة عن روح الإسلام.

وكانت النية إصدار جزء ثان كما جاء فى مقدمة الطبعة الأولى، ولكن حالت دون ذلك التطورات، ومعظم الأفكار الواردة فى هذا الكتاب هى ما نؤمن به الآن، وأن أقلعت فى الأيام الأخيرة أو عن مناقشة العقائد ما بين الأديان، **لأنى وجدتها فى الحقيقة وراثة يحملها أصحابها، وهى بهذه الصفة لا تدخل فى مجال الاختيار والإرادة الفردية، وأن إثارتها توجد حساسيات لا تختلف عما تثيره الموضوعات العنصرية، وقد أغنانا الإسلام عن ذلك لأنه أرتضى التعددية الدينية ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ .﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وأن كل حديث عن الاختلافات ما بين الأديان مردها إلى الله تعالى يفصل فيها يوم القيامة بحكمة أعلاً من حكمتنا وفهم أوسع من فهمنا الذى يتحكم فيه القصور والتحيزات. بل لقد رأيت أن فى**

تعددية الأديان فضيلة وفيرة، وإلا لما أرادها الله وأبقى عليها، فلنتقبلها بطيبة نفس ولنعلم حكمه الله فى ذلك..

ولعل من حق قراءٍ هذا الكتاب أن يعلموا إن السلطات تحفظت عليه فى المطبعة قرابة عام تقريباً حتى أمكن إستخلاصه منها بعد أن أصاب العطب بعض النسخ التى كانت موضوعة فى مكان أفترض أن تنقل منه فوراً فظلت فيه عاما.

وأخـيراً فـإن هـذا الكتـاب يـأتى وقد أعلنا عن ظهـور دعـوة الإحيـاء الإسـلامى، وسيأخذ هذا الكتاب طريقه ليكون كتابا جديداً يضاف إلى مكتبتها.

لهذه الأسـباب يسـعدنى أن أقـدم إلى القـارئ الطبعة الجديـدة من روح الإسلام...

القاهرة في: شعبان 1421/ نوفمبر 2000

جمال البنا

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

"قد استقام الميسم"

لم يكن خالد بن الوليد بين رجالات قريش بالذي ُيكّن عداوة خاصة للإسلام، ولكنه لما كان القائد المبرز فقد كان عليه بحكم هذه الصفة أن يوقع بالمسلمين الهزيمة، وقد حاول ذلك في كل المعارك التي شهدها وحققه في "أحد" التي استشهد فيها زهرة فرسان المسلمين، ولكن انتصار الإسلام كان أعظم من هزيمة أحد، وقد فكر خالد فأطال التفكير، ثم خرج ليعلن بطريقته العسكرية الصريحة "قد استقام الميسم وإن الرجل لنبي" وذهب ليضع سيفه بين يدي الرسول..

واليوم، وبعد ألف وثلاثمائة سنة يقف المفكر العـربي الموقف نفسـه، فحـتى لو كان يضمر إعزازاً خاصاً للإسلام، فإنه بحكم صـفته كمفكر يـرفض الأخذ بالمسـلمات، ولا يرى فيما ورث أو ما يؤمن به الناس مقنعاً لإيمانه، خاصة وهو يشـهد الأوهـام تكـاد تـذهب بالحقيقة فيما يقـرأ أو يلمس عن الإسـلام، ومن ثم فانه يبـدأ معركة فكرية قد

تكـون أقسى من معركة خالـد، لأن الفكر أعصى من السـيف، والعصر الحاضر أقسى من الزمن الماضي.. ولكن النهاية مع ذلك واحدة: انتصار الإسلام..

وقد تكـــــرر هـــــذا الموقف ببدايته ونهايته منذ أن انبعثت المجموعة الأولى للمفكـرين المصـريين في العشـرينات وضـمت طه حسـين ومنصـور فهمي وعلى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل وإسماعيل مظهر حتى آخر المجموعـات في الخمسـينات والستينات وضمت خالد محمد خالد ومصـطفى محمـود وجلال كشك وغـيرهم، فهـؤلاء جميعاً بدأوا بالشك أو المعارضة، وانتهوا إلى الإيمان واليقين.

ومع أن التكـرار يبعد الأمر عن أن يكـون حالة فردية ويعطيه مضـمون الظـاهرة الاجتماعيـة، ويضـيف برهانـاً جديـداً على أنه "ما شـاد الـدين أحد إلا غلبـه" إلا أن هـذا التكرار نفسه يدل على أن هـذه المعالجـات كـانت جزئيـة، فكل منها يتنـاول ناحية في نواحي الأدب أو العقيدة أو النظام الاجتماعي في الإسـلام دون أن تجر معالجة شـاملة لاستكشاف الإسلام كنظرية شاملة ومتكاملة، وللربط بين هذه المعالجة وبين المجتمع الحـديث، وبوجه خـاص بالنسـبة للـوطن العـربي، فقد حـال دون ذلك الانفصـام في شخصية المجتمع المصري الذي بدأه محمد على عندما أوفد البعثات إلى الخارج، وفتح البـاب للثقافة الأجنبية ووضع بـذلك بـذرة الانقسـام ما بين الثقافة الحديثة الـتي تمثلها الجامعات الأوربية، والثقافة التقليدية التي يمثلها الأزهر. ودعم الاحتلال البريطاني هـذا الانقسام وعمقـه، فاحتضن بـاليمين المعسـكر التقليـدي واحتضن بالشـمال المعسـكر الحديث وعمل بكل قوة للحيلولة دون التقائهما. وكانت نتيجة ذلك أن أصبح المثقفــون المحدثون لا يلمون بالإسلام والمثقفون التقليديون لا يلمون بالعصر. ولما كان لكل من المعسـكرين اعتزازاته الخاصة ومواقعه ومنـاطق نفـوذه، فقد آثر كل منهما الانطـواء وحفر خنادقه وآوى إليهــا. وأصـبح ممثلو الثقافة الإسـلامية بمعــزل عن ثبج المجتمع وتيــاره الرئيسي وأخــذوا شـيئاً فشـيئاً شــكل "رجـال الـدين" بأزيــائهم وســماتهم وتخصصاتهم المعينـة، فلا يطلبـون إلا في المناسـبات الدينية ولا يستشـارون إلا عنـدما يراد الاستعانة بنفوذهم الروحي، وعندئذ يؤتى بهم ليأخـذوا مقاعـدهم بجـانب إخـوانهم رجـال الـدين المسـيحي، لا يفـرق بينهم إلا لـون العمـائم!، بينما يـدير المعسـكر الآخر شـئون الحيـاة، ويهيمن على الصـحف ووسـائل الإعلام والتوجيه الأيـدلوجي والنشـاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

ولم تكن هذه القسمة بالسيئة بالنسـبة للفـريقين فيما يبـدو. فقد عينت الحـدود والاختصاصـات، وتقبل كثـير من "رجـال الـدين" هـذا الوضع بعد أن استرضـوا ترضـية مادية فيما يتعلق بالوظائف والدرجات والألقاب وترضـية أدبية في المناسـبات، وقنعـوا بما قدمه المسئولون من رضيخة سخية وإن لم تصل إلى حد السـهم الـذي يـدل على لــون المشـاركة. وإن كـان يحـدث بين الفينة والفينة احتكاكـات واسـتثارات يشـعلها المتحمسون من الفريقين الذين يفكرون تفكـيراً أيـدلوجيا يجـاوز دائـرة الاختصاصـات العملية والفنيــــة. فيظهر من الفريق الحــــديث من يشن حربــــاً على "التعصــــب" و"الرجعية" و"الفسوق" "التقليد الأعمى" ولكن قلما يجاوز كل فريق مواقعه وخنادقه التي آوى إليها، وإن نجحت هذه المبـارزات في تـوهين المبـادئ الـتي يمثلها كل فريق وزعزعة الثقة بها.

ومع هـذا فلم تكن الضـحية الحقيقية لهـذا الوضع هي الإسـلام، فالإسـلام غـنى بأصوله، قوى بمبادئـه، مسـتكف بحماية الله وحفظـه، ولا الثقافة الحديثة الـتي تمضى قدماً في بلادها ولا الفريقين اللـذين يحتفظ كل منهما بمواقعـه.. ولكن الضـحية كـانت المجتمع المصــري، أي الأغلبية السـاحقة الــتي لم تضـعها ظروفها في معســكر من المعسكرين، أو تلزمها مواقع الالتزام أو الاحتراف في إحـداها. وكـذلك الشـباب الـذي تغلب على حماسته قيـود الأوضـاع ومقتضـيات المصـالح. فأصـبح هـؤلاء نهبـاً وفريسة للقلق والحـيرة والضـياع والانتمـاء إلى أشد المـذاهب غرابة وشـذوذاً ونكـراً وسـرى التفكك والانقسـام إلى نـواة المجتمـع- الأسـرة- فـأعلن الآبـاء والأمهـات عجـزهم عن توجيه أبنائهم وبناتهم، أو الوصول معهم إلى صعيد مشترك للتفاهم. ولم يعد من النادر أن نجد أسـرة الأب فيها شـيخاً، والأم حاجـة، والابن شـيوعي، والبنت وجوديـة. فكيف يمكن أن نسمى "هيئة الأمم" هذه أسرة..؟

وفشـلت كل المحـاولات الـتي أريد بها إصـلاح هـذا الوضع أو حـتى التنبيه إلى خطـورة الأمـر، رغم النكسـات والمثلات. لأن المعالجة الحقيقية إنما تكـون بالمجابهة الحاسمة الصريحة والمنهجية للمسألة الأيدلوجية، والمسألة الأيدلوجية لهـذه البلاد هي الإسلام، فإنها لم تعرف مذهبا أو نظرية على مدار ثلاثة عشر قرناً متوالية إلا الإسـلام. ومن ثم فإن أمس حاجة، وأعظم خدمة يمكن أن يقـوم بها مفكر عـربي هي أن يحـدد الموقف الأمثل ما بين الإسلام وما يفرضه من إيمان، والعصر الحـديث وما يطرحه من أوضاع وبقدر ما يكون هذا التحديد صريحاً، واضحاً لا لبس فيه ولا التواء، بقدر ما يعجل هذا بانتهاء فترة الانتقال ويخلصنا من الحلقة المفرغة ومن حالة الضياع والتمزق.

وليس هناك مانع أصولي من ذلـك. فقد قـام الخلاف أولا على أسـاس التخصص المـريح الـذي تقبلته القيـادات دون أن تعـنى بشعبها التائه على مفـارق الطـرق. ولو أنطلق كل منهما لالتقيا في نقطة معينة تلك هي أن الإســـــلام هو قاعـــــدة المجتمع المصري، وبدونه لا يكون لهذا المجتمع أصالة أو استقرار. وهو أمر يجب أن يعـترف به المثقفـون المحـدثون لأنه حقيقة يثبتها الواقع والماضي والتمحيص الموضـوعي. ومن ناحية أخرى فيجب على ممثلي الثقافة الإسلامية أن يستكشفوا الإسـلام من جديد فى ضوء العصر. وأن يفهموه فهماً ينبثق من جوهريـات وأصـول الإسـلام دون التفريعـات. لأن الأصول والجوهريات هي وحدها التي تمثل هداية الإسلام للبشـرية. أما التفريعـات فإنها اجتهادات تتأثر بالأوضاع وتتكيف بالملابسات.

***

ومنذ قرابة ربع قرن وقد لفتت هذه الظـاهرة انتبـاهي، وقد رجـوت وتمـنيت أن يقـوم مفكر مسـلم بهـذه المهمة التاريخيـة، وعـبرت عن ذلك في كتـابي ديمقراطية جديده (1946**)** وموقف المفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصـرة (1957).. ولكن ربع قـرن مضى دون أن يظهر هـذا المفكـر، وأصـبح القيـام بهـذه المهمة فـرض عين..

ومن الحق أن أقـرر أن هـذا الكتـاب إنما جـاء بهـدف مـزدوج. هـدف استقصـاء الحقيقة الإلهية التي تمثل ذروة وقمة المعنويـات وهـدف البحث عن حل لهـذا الضـياع الأليم الذي نعيش فيه، والـذي أفلست في علاجه كل الجهـود الـتي بـذلت –على مـدار العشرين عاما الأخيرة- والاصطناعات والصياغات**...**

وقد وجـدت أن هـذا العمل يجب أن يتضـمن أربعة أبـواب حـتى يحقق المعالجة الشـاملة المنشـودة. ففي البـاب الأول يكـون علينا أن نوضح مـبررات الأخذ بالإسـلام حتى يمكن أن نرد على السؤال الذي يسـتكن في أعمـاق الكثـيرين "لمـاذا الإسـلام؟" فــإذا وضح ذلك فعلينا أن نــرد على ســؤال آخر هو "ما هو الإســلام" لأن الغشـاوات حجبت حقيقة الإسـلام وجـوهره. وهـذا هو ما يعالجه البـاب الثـاني بعنـوان "مكونـات الإسلام".

ولكن معرفتنا بمكونات الإسلام من عقيدة أو عبادة أو خلق أو شـريعة أو تـراث لا تكفى، إذ لابد أيضـــاً من أن نفهم طبيعة الإســـلام وروحـــه، وطريقة عمله وتفاعل مكوناته ووسائله في التقييم ومعاييره في الحكم على الأوضاع والسلوك وما استحدثه من أساليب من "المقاصة" أو "البدائل" الخ... مما يطلقون عليه في التعبير الإنجليزي "ميكانزم الإسلام" وهو ما يجب أن يعالجه الباب الثالث.

ولكي يكون هذا الباب مفهوماً وواضحاً، فقد رأيت أن مـن الضروري إيراد بعض الأمثلة التطبيقية لفهم الإسـلام تجـاه عـدد من القضـايا البـارزة مثل المـرأة، والعمـل، والفنون، والآداب، والماركسية الخ**...** وبهذا تتضح أبعاد الصورة تماماً وتتمـيز قسـماتها بما لا يدع شكاً أو ظناً.

ولكـنى لم أكد أبـدا في الكتابة حـتى وجـدت أن الكتـاب بهـذا الـترتيب سـيكون ضخماً يشق على القـارئ شـراءه واسـتيعابه، كما تحكمت في الأمر أيضـاً الضـرورات العملية والمادية. ولم يكن هناك سوى مخرجين. فإما ضغط المادة ضغطاً كبيراً بحيث يتضمن الكتاب الأبواب الأربعة، ويكون في حجم معقول، وقد وجدت أن هذا يكاد يكون

مستحيلا، فلم يبق إلا تقسيم الكتاب إلى كتـابين يتضـمن أولهما البـابين الأول والثـاني، ويتضمن الثاني البابين الثـالث والرابـع، والنقص في هـذا أن قـارئ الكتـاب الأول قد لا يقرأ الكتاب الثاني، أو أن قارئ الكتاب الثاني قد يفوته الأول، ولكن هـذا أهـون من أن يأخذ القارئ صورة عامة غير واضحة أو محددة عن الموضوع بأسره.

ومن ثم فإن هذا الكتـاب في حقيقته هو نصف المشـروع وأرجو أن يظهر قريبـاً نصفه الآخر، وأن يقدر للذين قـرأوا الأول أن يقـرأوا الثـاني حـتى تتكامل في أذهـانهم صورة هذه المحاولة لاستكشاف روح الإسـلام ولجعله نقطة الانطلاق، وحجر الأسـاس في نهضة الوطن العربي، ولإفادة البشرية عامة به..

جمال البنا

القاهرة في: سبتمبر 1972/ شعبان 1392

الباب الأول

لماذا الإسلام؟

حقيقة لماذا الإسلام؟

أغلب الظن أن هذا التساؤل هو ما يتبـادر إلى ذهن معظم المفكـرين والمثقفين في الدول العربية.

فالمفكر العربي يستهدف التقدم والنظر إلى الأمام وليس التأخر والنكـوص إلى الوراء. وهو يؤثر الحرية على مختلف صور الضبط والإلزام. وواقع المسـلمين جمـاهير وقيادات لا يشـجع على دخـول هـذا الميـدان بل هو يثبط عن ذلك غاية التثبيـط. ولـدى الإسلام من المتعصبين له والمتحدثين باسمه ما يكفي وزيادة، وبعضهم يرون الحــديث عنه حكــراً لهم ووقفــاً عليهم. وقد انحطت معظم الكتابــات الإســلامية حـتى طغت الأباطيل فيها على الحقائق. وأصبحت حـديثاً معـاداً مكـرراً ليس فيه جـده أو إبـداع أو أصالة. وقد كانت الدعوات الدينية –ولا تـزال- أخصب مجـال للاسـتغلال والإدعـاء. ولم تستغفل الجماهير أو تتظاهر القيـادات بمثل ما يحـدث عن طريق الـدين. ولعل تسـعة أعشـار مظـاهر التقـوى والـورع غفلة غبية أو نفـاق رخيص وما أكـره هـذين إلى نفس المفكر**..**

والعصر بعد عصر التقــدم، وريــاح التغيــير- بل أعاصــير التغيــير- تقتلع الماضي وتوجد أوضاعاً جديدة.. ودول الشـرق متخلفـة.. وهي في أمس الحاجة إلى اسـتدراك هذا التخلف بالعلم، بالأسمنت، بالحديد، بالكفاية الإنتاجية..

كل هذا معروف.. مفهوم.. له وزنه وثقله**...**

ومع ذلك...

فالأمر بعد- كما يقول القرآن ﴿لَيْسَ بِأَمَـانِيِّكُمْ وَلا أَمَـانِيِّ أَهْلِ الْكِتَـابِ..﴾ ودائـرة الأماني كلها مستبعدة بـالمرة ولا يمكن للكـاتب أن يحكم إرادته أو رغبته الخاصة أو ما يتمناه.. لأن القضية موضوعية تماماً، وهي تفرض نفسـها وتقـوم على حقـائق، وقواعد وأسس، وليس على رغبات وإرادات.

***

هناك ثلاثة عوامل – على الأقل - تفرض علينا الالتزام بالإسلام**...**

- **فالتقــدم المــادي- وهو الإســهام الــذي حققته الحضــارة الأوربية الحديثة- لا يكفى لإسـعاد البشـرية ولا يحقق سـلام النفس ولابد من عقيدة إلهية كاملة مبرأة، وهذه ما يقدمها الإسلام.**
- **والإسلام وحده هو الذي يقدم أفضل صور الالتزام التي يقـوم عليها مجتمع..**
- **والإسلام بعد هو أبرز مقومات الشخصية العربية، وبدونه تكـون هـذه الشخصية باهته سطحية بلا أعماق، ولا جذور، ولا بلورة..**

وفي هذه الأسباب الثلاثة مقنع لمن يبغي الحقيقة.. ومن يحكم العقل لا الهوى.. ومن يغلب الإنصاف لا الإغراض.

الفصل الأول

لأن التقدم المادي - وحده - لا يكفى..

منذ العصور الأولى للإنسان وقد قاد خطواته "إيمان" جعل له دوراً وأضفى على وجوده طعما وأكسبه غاية.. حتى وإن لم يكن هـذا الطعم سـائغاً أو لم تكن الغاية هي الغاية المنشودة...

وبفضل هذا الإيمان استطاعت الجماهير أن تتغلب على شظف الحيـاة، وقسـوة المعيشة.. قبل أن تظهر المطبعة والآلة لينقذاها من جهالتها وفاقتها...

ومن السخف القول إن الإيمان لم يكن أكثر من "أفيون" الشـعوب طـوال هـذه العصور خدرها ومكنها من أن تحمل عبئها وتستسلم لقدرها...

لأنه ما لم يكن هنـاك سـلاح للمقاومـة، وما لم يحن الـوقت المناسـب. فـإن أية وسـيلة للتحمل تعد تقـدماً، وليس هنـاك بـديل سـوى الانتحـار.. أو الفشـل، وثـورات الفلاحين الــتي انتظمت المجتمع الأوربي خلال القــرنين الرابع عشر والخــامس عشر وباءت بالفشل دليل على ذلك..

والذين يقولون أفيون الشعوب.. هم أنفسهم الذين يقولـون "إن الحكم على كل نظام اجتماعي وكل حركة اجتماعية في التاريخ لا ينبغي الحكم عليها من ناحية العدالة الأبدية. أو من ناحية أية فكرة أخرى مقدرة سلفاً كما يفعل المؤرخون غالبـاً. بل ينبغي حكمنا على أسـاس الظــروف الــتي ولــدت هــذا النظــام وهــذه الحركة الاجتماعية المرتبطين بها.

إن نظام الرق في الظروف الحاضرة خرق وبدعة مضادة للطبيعـة، ولكن نظـام الــرق في ظــروف الشـيوعية الأولى الآخــذة في الانحلال، هو حــادث مفهــوم تمامـاً، ومنطقي، لأنه يعنى خطوة إلى الأمام بالنسبة لها"[1].

ومن المهم أن نفهم أن "التحمل" الذي إرتأته الأديان البشـرية وقتئذ على حقيقتـه. فلم يكن يعنى الاستسلام الأبدي.. ولكن المطاولة والصبر، والثبات حـتى تـأتى اللحظة المناسبة، ولو بعد أجيال.

ومن المهم أيضـاً أن نوضح أن الأديـان في الـوقت الـذي مكنت الجمـاهير من التحمل والمطاولة بحيث لا تبخع نفسها، أو تدخل في معارك خاسرة فإنه كـان ملزمـاً للقيادات حتى أعلاها –الملـوك - ولم يكن غـيره يسـتطيع ذلـك. فكـان الملك في أوربا يخضع للبابا كما كان السلطان في الشرق يخضع للخليفة باعتبار هـذين ممثلين للإرادة الإلهيـة. ولم يكن البابا أو الخليفـة، بـدورهما، بمنـأى عن النقد رغم كل هيلمانهمـا، وما ألصق بهما من عصمة، لأن هذا الهيلمان لم يكن شخصياً أو وراثياً، وإنما كان مسـتمدا من أنهما ممثلا العقيدة، فإذا جافياها تعرضا للنقد، كما حدث بالفعل في حالات عديـدة جداً.

المهم في هذا كله أن الإيمان الديني زود الجمـاهير بطاقة من التحمل والصـلابة وأودع فيها من المشــاعر النفســية والعاطفية ما جعلها لا تفقد الأمل في المســتقبل حـتى لو كـان في ملكـوت السـماء.. أو عند الأجيـال التالية ومكنها هـذا وذاك من أن تتحمل قدرها وظروفها في رجولة دون أن يتطرق إلى نفسها يأس أو تحس ضياعاً.

وهـذه النقطة هامـة. ففي جحيم الفاقة والبأسـاء والجهالة أثـرى الـدين حيـاة الفقراء.. وأضـاء معيشـتهم المظلمة ويسر لهم فلسـفة ذات أبعـاد وأعمـاق.. بينما لم يغن كل ثراء التكنولوجيا خواء النفوس. ولم يكن في كل معـارف العلم مقنعـاً معنويـاً لجماهير العصر الحديث...

---

[1] **1. ستالين: المادية الديالكلتيكلية والمادية التاريخية ص 23.**

***

وقد طويت هذه الصفحة في أوربا بظهور العصر الحديث، وتهاوى الإيمان الديني بعد أن وجهت إليه مطارق العلم الحديث وجدت عوامل وأوضاع ظن أنه قد أصبح معها غير ذي موضوع

فقد حقق الرخاء المادي جنة على الأرض، فلم تعد الجماهير بحاجة إلى الصبر والتحمل والسلوى، واقتلعت الثورات السياسية الملوك من عروشه، وحددت الدساتير النظم والحقوق والواجبات بحيث لم يعد الدين هو الذي يكبح جماح الملوك والقادة، فانكمش الإيمان الديني وأصبح شيئاً من التراث يحيا على هامش اهتمامات الناس وأصبح الدين "كنيسة" يزار ساعة كل أسبوع أو في مناسبات الزواج والوفاة..

وخطت أوربا خطوة جديدة حاسمة عندما تفتحت لها أبواب الثورة التكنولوجية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، هذه الثورة الثانية التي جعلت الثورة الصناعية الأولى حدثاً بدائياً، توضع منتجاته في المتاحف. إذ أوجدت عمالقة الذرة وسحرة الإليكترون و "الكمبيوتر" وأشعة ليزر والعدسات التليفزيونية. ووسائل الآلية التلقائية في الصناعة "الاتوميشن" وانهالت السلع اللامعة البراقة من كل نوع بالملايين وغصت بها البيوت بينما تجرى العربات الفارهه على الطرقات اللامعة، وتشق الطيارات عنان السماء وتنزل الغواصات التي تسير بالطاقة الذرية إلى أعماق الأعماق المظلمة للبحار والمحيطات. وتنطلق الصواريخ لتفلت لأول مرة من إسار الجاذبية الأرضية وترتاد عالم الفضاء العجيب وتنزل على القمر وتذهب إلى الزهرة، وانهالت الثروات على الشعوب وارتفعت مستويات المعيشة ارتفاعا كبيراً وتضاعفت نسب الاستهلاك في كل شئ حتى لقد سمى المجتمع المعاصر "المجتمع الاستهلاكي" وتقدمت فنون الاستمتاع بالأكل، والشراب، واللهو كما لم يحدث أو يتصور من قبل. ونسى الفقر باعتباره الجوع الكافر أو العوز المذل وأصبح الفقير عرفاً هو من يتقاضى قرابة ألف جنيه في السنة..

بالاختصار.. أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها، وكاد أن ينطبق عليها قول الله ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾..

فهل قضت البشرية لبانتها.. ووجدت جنتها، وظفرت بالسعادة المنشودة..

لا ريب في أن كثيراً من جوانب الحياة كالصحة العامة ومستوى الثقافة وظروف السكنى والمواصلات قد تحسنت تحسناً بالغاً إذا قيست بمثيلاتها في الماضي، كما تحسنت ظروف فئات معينة كانت مقهورة، مغبونة كالعمال والفلاحين والنساء والأطفال، ولم تعد الحياة رتيبه كئيبة مظلمة.. ولكن أنيقة لامعة متلألئة**..**

ومع هذا..

فلم يحقق التقدم التكنولوجي ما أمله الناس منه وكانت هناك دائماً هوة كبيرة.. بين الأمل والواقع.

مع كل استمتاع كان هناك غصة.. ومع كل تقدم كان هناك نكسة.

فعندما جعل الإنسان الأوربي الاستمتاع غايته عوقب.. بأن لا يدرك قط غاية هذا الاستمتاع، أصبح الاستمتاع نوعاً من السراب لا يكاد يبلغه حتى يفلت منه. وهي حقيقة قد تأخذ شكل قانون الغلة المتناقصة أو قاعدة "التعود أو الزيادة" ويحسها جيداً المدمنون والمدخنون وشاربو الخمر الذين لا يلزمون القصد، ولكن يستهدفون أقصى درجات الاستمتاع. فلا يبلغون درجة من الاستمتاع حتى تصبح بعد مدة عاجزة عن إشباعهم، ويصبح من الضروري مجاوزتها.. وهلم جراً حتى يصبح الناس أسرى دائرة مفرغة لا تنتهي قط، وهو ما يلائم تمام الملاءمة مجتمع الاستهلاك.

وفي الوقت نفسه فإن هذا الاستمتاع ما كان يمكن أن يتحقق لو لم يعمل الناس كالآلات في المصانع في دقة بقدر ما تنال الإعجاب من الناحية الموضوعية،

بقـدر ما تثـير الأسى من الناحية الإنسـانية.. حـتى أصـبح التـوتر داء العصر واصـبح الاستمتاع مساءً علاجاً ضروريا لكي يمكن إزالة التوتر صباحا..

وقد صـور كـاتب مصـري المجتمع الأوربي في إحـدى فـترات ازدهـاره التجـاري ورخائه الاقتصادي، فبعد أن تحدث طويلا عن مظاهر هذا الرخاء من تعدد أنـواع السـلع الخ... قال:

"ولكن الأوربي رغم ذلك رجل غير سعيد، والأهـواء الاجتماعية الـتي تعانيها أوربا تذهب بجانب ضخم من ثمرات الرخاء، فإن الأوربي الذي يعمل من الثامنة صـباحاً إلى الخامسة أو السادسة بعد الظهر- عـدا سـاعة أو سـاعة ونصف للغـذاء- لا يعـرف مـاذا يعمل بنفسه ووقته حـتى تحل سـاعة النـوم. ملل ويـأس ثقيلان يبهظـان أكتـاف أولئك الناس ساعات بعد ساعات، والوسـيلة الرئيسـية لمحاربة الملل عنـدهم هي الشـراب، ولم تكـثر البـارات ومتـاجر الخمـور في أوربا كما كـثرت اليـوم، وبلغ من أتسـاع توزيع بعض الأصناف كالويسكي والكونياك والشمبانيا والأنبذة العادية أن الشـركات تلجأ إلى تحضـيرها كيماويـاً لمواجهة الطلبـات المتراكمـة، وإذا لم يطلب الإنسـان ماركة معينة فإنهم يقدمون إليه تركيباً كيماوياً له نفس الطعم واللون والرائحة والفعل أيضاً، وينـدر أن يخـرج رجل أوربي من عمله إلى بيته دون أن يمر على البـار أو المقهى أو النـادي ليحتسى بعض الكئوس، وفي أحيان كثـيرة يمتد الاحتسـاء إلى سـاعات متـأخرة، وهـذا يجر إلى مالا مفر منه من رذائل أخرى.. وفي ألمانيا وإنجلـترا بالـذات- وبخاصة لنـدن- اتسع مجال الرذيلة واستشرى، وفي تحقيق بشع نشرته الباري ماتش من ثلاثة شـهور تبين أن إيراد الدعارة يزيد على إيراد أضخم الشركات الفرنسية، وفي بـاريس وحـدها 6000 مومس يربحن في السنة أكـثر مما تـربح شـركة رينو للسـيارات. وفي اليابـان- حيث يسـير الرخـاء الاقتصـادي مع الأمـراض الاجتماعية جنبـاً إلى جنب- تصل أرقـام تكاليف التسلية إلى مبالغ خياليـة، فهنـاك- في طوكيو على سـبيل المثـال- ملهى ليلى واحد (من كثـير) هو الميكـادو وتعمل فيه ألف فتـاه بين راقصة ومضـيفة، وإيـراده في الليلة الواحدة مليون ونصف مليون دولار.[2]

ولم يتحـدث الكـاتب عن انعكاسـات هـذه الحالة على الفنـون والآداب، فحالة الخـواء والتـوتر والملل دفعت إلى صـور من السـلوك "اللامعقـول" والشـذوذ وجلد العواطف والمشاعر حتى تتحرك فبعد أن كانت صالات الموسيقى تبطن جدرانها بمواد تمتص الصوت فإنها عمدت إلى تبطينها بالألمونيوم ليضـاعف الصـدى، وأخـذت الأفلام تقترب بدرجات من العرى حـتى جاوزته وأصـبحت ممارسـات جنسـية، ومشـاهد يؤخذ معظمها في حجرات النوم، وانتقلت العدوى إلى المسرح، فأصبح الممثلـون يظهـرون عـراة على المسـرح.. وأصـبحت المخـدرات داء عيـاء ومرضـاً عضـالا في الولايـات المتحدة، وظهرت تلك الفئات الشاذة الـتي تجمع الشـباب الضـائع التائـه، وتحمل أسم "الهيبز" أو "البيتلز" أو غير ذلك..

تلك هي انعكاسات أمل الاستمتاع المنشود أما انعكاسـات قضـية التقـدم الفـني والإنتاجي، فلم تكن أقل مأساوية، فبقدر التقـدم.. بقـدر ما تظهر المشـاكل الجديـدة.. فهناك الانفجار السكاني الذي يهدد الأرض بأن تضيق بسكانها، وفي الوقت نفسه الذي يبذل فيه علماء البيولوجيا الجهود لإشاعة الوسائل المقيدة للنسـل، يعمل الأطبـاء بكل همة لتحسين الصحة وإطالة الأعمار!

وظهـرت مشـكلة اسـتنزاف المـوارد الطبيعية وتلـويث البيئة تلويثـاً وصل إلى أعماق البحار والآثار السيئة للإشعاعات الـتي أصـبحت قـوام صـناعات عديـدة، وقضى التقدم التكنولوجي على المنشآت الصغيرة، وجعل الهيئات الممـردة وحـدها هي الـتي تستطيع البقاء، فكأنما أعاد مرة أخـرى عهد "الديناصـور" والوحـوش العظيمة وابتلعت هذه المنشآت الضخمة ليس فحسب الفرد، بل وأيضاً المنشآت الصـغيرة والمتوسـطة وقضت قضـاء مبرما على الحرية الفرديـة، وأصـبحت أخص خصوصـيات الفـرد مهـددة بعيون تليفزيونية وآذان إليكترونية لا ترى ولا تحس.

---

[2] **2. الأهرام - "أوربا تعود من الأجازة" للأستاذ حسين مؤنس. عدد 13/10/1966.**

وسرى التقدم التكنولوجي إلى صناعة الأسلحة التي بدأ منها، أو بفضلها أول مرة "إذ كانت الحرب العالمية الثانية هي القابلة التي أشرفت على وضعه" فظهرت أنواع من الأسلحة الرهيبة التي تقشعر لها الجلود من أسلحة ميكروبية إلى أسلحة ذرية إلى أسلحة هيدروجينية وتبارت الدول الكبرى في صنعها والدخول إلى "النادي الذرى" وأوقف ذلك كله العالم على شفا الانتحار النووي.

ولم يقف المسئولون عن إصلاح المجتمع الأوربي مكتوفو الأيدي.. وحاولوا العلاج بكل الطرق التي تصوروها..

حاولوا الإصلاح عن طريق الفنون والآداب ولكن الفنون نفسها أصبحت آلية، أصبحت صناعة، ولم تخضع فحسب لكل سوءات وضرورات الصناعة، بل أصبحت داعية وخادمة الصناعة ووسيلتها إلى التأثير والتضليل، كما هو الحال في الصحافة والسينما، وهما أكبر وسيلتين تشكلان الرأي العام، وقد جعلتهما الصناعة مسخين دميمين- بل شيطانين مدمرين للخلق ولمقومات وشخصية الفرد، وبذلك أصبح الدواء.. هو الداء..

حتى الفلسفة أعلا الثقافات وأسماها وأكثرها استعصاء على الاستغلال وأقلها تأثراً بالأوضاع، رأت أن عليها إما أن تسهم في المزاد.. أو أن تعتصم بأبراج السكون..

وقد يصور تخبط أوربا في تلمس العلاج، وأنها في النهاية، وبعد اللف الطويل تعود إلى الداء لتلتمس منه الدواء أن المستر ويلفرد جنكس المدير العام لمكتب العمل الدولي قدم إلى الدورة السابعة والخمسين لمؤتمر العمل الدولي (يونيه 72) تقريراً يعد وثيقة رهيبة عما وصل إليه إفساد التقدم التكنولوجي للبيئة وإهداره للحريات وإثارته للقلق بين فئات المجتمع وأنه أوقف البشرية على مفترق الطرق ما بين الحياة أو الانتحار وأن الرد "لن يتوقف على المهارة.. ولكن على الحكمة..".

ومع هذا.. فقد أطلق على تقريره عنوان "التكنولوجيا في خدمة الحرية" في حين أن الحرية هي سبب هذا البلاء. ومجد التقدم الصناعي وسبح بالآئه وأعلن أنه "لن تكون هناك عودة إلى الطبيعة لإنسان العصر الحديث" واقترح أن يصبح التخلص من مخلفات الصناعة.. صناعة جديدة..

وليس تقرير مدير مكتب العمل الدولي إلا وثيقة واحدة من مئات الوثائق والكتب التي تخرجها المطابع صباح مساء. والكثير منها يصور ما يمكن أن تنتهي إليه الأمور لو أطلق عنان التقدم المادي والإنتاجي دون التحكم فيه وتوجيهه. وحسبنا أن نشير إشارة مقتضبة جداً إلى كتابين من هذه الكتب ليأخذ القارئ فكرة سريعة. أولاهما كتاب الدوس هكسلى "العالم الجديد الشجاع"[3] والثاني كتاب "جورج أوريل" 1984[4].

والكتاب الأول يصور لنا العالم في المستقبل البعيد شيئاً ما، وفي هذا العالم "يصنع" الأطفال في معامل التفريخ، ويقسمون وهم أجنة أربعة فئات، وتكيف كل فئة بحيث تكون سعيدة وفخورة بوضعها- حتى ولو كانت الفئة الدنيا وبذلك لا يوجد صراع الطبقات. وهذا العالم مترف بفضل التكنولوجيا الحديثة. وهو يستخدم الطائرات والصواريخ وتشيع فيه الروائح العطرة والموسيقى التي تدغدغ العواطف. والعلاقات الجنسية مشاعة حرة- كالطعام والشراب" وقد نسى النساء عملية الولادة وأصبحت الكلمة تعبيراً بذيئاً لذكرى قديمة مهينة. وشخصية الفرد تفنى في شخصية الجماعة، وليس هناك مشاعر عنيفة أو آلام.. أو آمال.. أو فنون بالمعنى المفهوم وعندما يعتري البعض ضيق مؤقت فهناك حبوب "السوما" التي تكفل له أجازه سعيدة من الوعي تستمر مدتها تبعاً لعدد الحبات.

والكتاب على أغرابه، وعلى ما فيه من تجديد فإن الإضافة الحقيقية هي عرض مشاهد التقدم التكنولوجي.. أما أدبيات هذا المجتمع فالحق أننا نرى اصلها في جمهورية أفلاطون، وهناك خيط دقيق لا شعوري يربط هكسلى البريطاني بأفلاطون

[3] **3. وقد ترجم إلى اللغة العربية بعنوان "العالم الطريف" دار الكاتب المصري.**
[4] **4. ترجمته إلى العربية دار الأديب – دمشق.**

الأثينى فكل منهما يقسم دولته إلى طبقات راضية بقسمتها، والعلاقـات الجنسـية على الشيوع، وليس هناك انفعـالات عنيفـة، أو فـرد مسـتقل. والمسـئول عن هـذا هو عـدم تعرف المجتمع الأثينى على فكرة "الله" بالمعنى الإسلامي وفشل المسـيحية المحرفة في أن تزود المجتمع الأوربي بها، لأن هذه الفكرة وحـدها هي الـتي تسـتطيع أن تقـدم السمو المعنوي الذي يجاوز، ويفوق، دائرة الاستمتاع وتعصم المجتمع من هـذا الجنـوح أو الفراغ، كما تحول دون ابتلاع المجتمع للفرد واستحواذه عليه جسماً وروحاً.

والكتاب الثاني يصور- كما ينم على ذلك اسمه- العالم سنة 1984 حيث تتقاسم السلطة في العـالم ثلاث دول كـبرى. وفي الدولة الـتي يتحـدث عنها الكـاتب يسـيطر "الأخ الكبـــير" وفي كل الـــبيوت توجد لوحة تـــدعى "الســـتار الناقـــل" وهي كشاشة التليفزيون تنقل إلى المسـئولين صـورة كل ما يـدور في الحجـرة، ولا يمكن تعطيلهـا. ويقوم هـذا العـالم على التفكـير المـزدوج، أي الإيمـان بالشـيء ونقيضه وهكـذا تكـون الحـرب هي السـلم، والحب هو الكـره، والجهل هو القـوة. وتكـون وزارة الحب أشـبه بقلعة تحوطها الأسـلاك الشـائكة. وقد محي الماضي من أذهـان النـاس ومن الوجـود قاطبة..

وقد تبدو هذه التصورات كما لو كانت "خطرفات" أو هـذيان سـكير.. أو أضـغاث أحلام.. ولكن الحقيقة أنها ليست بعيده عن الحاضر لو ترك هذا العالم المجنون يمضى قدماً. وقد قال هكسلى إنه لم يفعل أكثر من أن سار بـالتطور القـائم بالفعل خطـوات إلى الأمـام، كما أن فكـرة التفكـير المـزدوج والأخ الكبـير ليس إلا امتـداداً لديكتاتورية ستالين ولمسخ الشيوعيين لمبدأ "الجـدل" ولجعله يقبل كل شئ حـتى ولو كـان يضـاد نفســه. وكل من يقــرأ كتابــات "أرثر كوســتلر" الشــيوعي الســابق عن "الأكروبــات الجدلي" وكيف كان يطوع أشد المعاني استحالة لا يستغرب ذلك. ومن ثم يكـون علينا أن لا نأخذ هذه التنبؤات مأخذاً سهلا فقد تكون بالنسبة للحاضر أقرب مما كانت بـوادر صناعة الطيران.. مما انتهى إليه الأمر فيها.. وإن كان كل ما يتعلق بالنفس البشرية أو المجتمع الإنساني يكتسب تعقيداً لا يوجد في عالم الصناعة.

لا الفلسفة ولا الفنون ولا الآداب استطاعت أن توقف جائحة التقدم التكنولوجي وتيار الحضارة المادية وإغراء الاستمتاع حتى **الانفجار أو الانتحار..**

هناك قوة واحدة تستطيع ذلك..

وهذه القوة هي الدين..

ومأساة أوربا ولعنتها أنها اضطرت لأطراح هذه القوة بالذات..

ولو سألنا الأوروبي..

أيها الوحش الأشقر..

ما الذي غرك بربك الكريم..

الذي خلقك فسواك فعدلك.. في أى صورة ما شاء ركبك

لكان الرد أن أوربا لم تفهم من الـدين سـوى الكنيسـة، والأكلـيروس، وما قدمه هؤلاء على أنه المسيحية..

ولم يكن ما قدموه مشجعاً على الإيمان..

فقد أقحمـوا في كتبهم الأسـفار المحرفة لبـنى إسـرائيل أي ما يسـمونه العهد القديم. وأصبح على المسيحيين أن يعرفوا نسب البشرية من نوح حـتى آدم فـرداً وأبا عن جد وأن يعلمـوا مـاذا خلق الله في كل يـوم من أيـام الأسـبوع حـتى لحقه التعب فاستراح في اليوم السابع.. وأن يؤمنوا بكل الترهات والأقاصـيص الجنسـية والوحشـية التي حفل بها العهد القديم. وكان هـذا الإقحـام، ومطالبة النـاس بالإيمـان به من أكـبر الأسباب التي دفعت إلى الإلحاد وزعزعت الإيمان بالمسيحية ولم يكن هنـاك أي مـبرر لهذا الإقحام حتى لو كانت ديانة خاصة بـاليهود أو كما جـاء في بعض النصـوص "لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة".

وقـــدم الأكلـــيروس لاهوتـــاً معقـــداً ثقيلا لا يكـــاد يفهم عن الأب والابن والـــروح والقـدس وعلاقة أفـراد هـذا الثـالوث بعضـهم ببعض فضلا عن أفكـار الخطيئة الأصـلية والقربان والفداء والصلب.. الخ..

وادعت مسـيحية الأكلـيروس تضـاداً منفـرداً وممزقـاً ما بين الجسد والـروح، وبالمثل فصلـت ما بين الـدين والـدنيا ورفضت أن تبـدى رأيـاً في الأوضـاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية..

وأهم من هذا كله أن الأكليروس قدم صـورة مهـزوزة للـه، صـورة إله إنسـاني، "إبن الإنسان" يصلب لأخطاء البشر وليس في هذه الصورة ما يغرى النـاس بالخضـوع لأحكامها أو النزول على تعليماتها.

وهذا هو السـبب في أن أوربا تجـاهلت المسـيحية كقـوة مـؤثرة في الإصـلاح أو مهيمنة على النفوس، لأن الإله الإنساني لابد وأن يكون أسير التصور الإنسـاني، فينظر الناس إلى الله كأنه "إله ديمقـراطي دسـتوري يتعـاون معنا على قـدم المسـاواة" كما ذكر مؤلف كتاب "فشل الوثني الطيب" ويسـتطرد الكـاتب فيقـول "إن أي واحد يقـرأ المقالات الدينية التي تظهر عادة في صـحف الأحد يـألف تعبـيرات مثل "إن ربي يجب أن.. " أو "أنا لا أقبل إلها يكـــون.."[5] وتحـــدث آخر عن المســـيحية الليبرالية "الـــتي تحتفظ بكليـات الـدين وتهمل جـوهره" وألف هـذا الأخـير كتابا يثبت فيه "أن أعظـم الأخطاء التي ارتكبها المجتمع البشري خلال القـرون الأربعة الأخيرة، والنتـائج الوخيمة الـتي تـرتبت على هـذا الخطأ هي أن الإنسـان- وليس اللـه- وضع في صـدارة الكـون- **ولن يمكن للحضارة أن تخلص من الكوارث التي تلاحقها إلا عندما تصـحح هذا الخطأ**"[6].

ومن المؤسف أن معظم المفكـرين الـذين لمسـوا هـذا النقص لم يسـتطيعوا التوصل إلى الحل، وداروا هم أيضاً في الحلقة المفرغة- لأن النـور الوحيد الـذي يمكن أن يهـديهم في هـذه المتاهة المظلمة هو الإسـلام، وقد أحيط بسـتار حديـدي آونة أو بطبقة سـميكة عازلة من الـدعايات المسـمومة. بحيث أن الـذين تنبهـوا إلى أصـالة الإسلام نظروا إليه من زاوية مغرضة، وقد يصور ذلك ما جـاء في كتـاب وضـعه أسـتاذ بجامعة ليـدز كإجابة لاهوتية على تحـدي الإسـلام" إن علينا أن نشـكر الله لأن الهـدف الـذي من اجله أظهر الإسـلام قد قـارب- بعد ثلاثة عشر قرنـاً- التحقيق وأعـنى به أن يوضح لنا خطأنا في فهم الإيمان الذي ندعو إليه، والناموس الذي نبشر به" [7].

ولكن المؤلف لا يشكر للإسلام هذا أو يعترف له بفضيلته "لأنه يرى "إن الحقيقة هي أن الإسلام من أول يوم حتى الآن، كان أعظم عقبة تجاه المسيحية والعدو لحقيقة المسيح".

نتيجة لرفض أوربا الصورة المشـوهة الـتي عرضـتها الكنيسـة، ولجهلها للصـورة السـليمة الـتي يقـدمها الإسـلام آثر الإنسـان الأوربي أن يكـون الابن الحـرام للصـدفة الشرود عن أن يكون ولى العهد على عرش أكذوبة مدعاة. فاعتقد في التطور، وتصور أن مـن الممكن أن تكون الحياة قد بدأت على الأرض عشـوائية "عنـدما انـدمجت منذ بليونين من السنين بعض الهنات البدائية الحية لتؤلف خلية، أي كيان دقيق يحتوى نـواة معلقة في قطرة من سائل يحيط بها غشاء ونشأت عن هذا الحدث الارتقـائي الضـخم وبسرعة نسبية الكائنات الأحادية الخلية.

وعلى ممر القـــرون على هـــذه الخلايا الـــتي أخذ بعضـــها يختلف عن بعض فيما يكتسب من خواص رأت أن من الخـير لها أن تـأتلف على مبـدأ "تقاسم العمـل" حـتى يكمل بعضها بعضـاً من حيث الخصـائص الـتي تنقص كل منها فـرادى. وبهـذه الطريقة ظهرت إلى الوجود طلائع الكائنات المتعددة الخلايا ".

---

5 **5. فشل الوثني الطيب ص 86.**

6 **6. زهرة العشب ص 8.**

7 **7. رد ثيولوجى على تحدى الإسلام ص 7.**

ومـرة أخـرى اسـتطاعت هـذه الكائنـات أن تتغلب بمـرور ملايين السـنين على عقبات عديدة بعضها يتعلق بالأكسجين وبعضها يتعلق بالقلب أو المخ أو الأعصاب حتى أمكن أخيراً أن تظهر أدنى الكائنات الحيوانية.

ومرة ثالثـة، رحلة طويلة عـبر ملايين السـنين أيضا من أدنى الكائنـات الحيوانية حتى أرقاها- الإنسان[8] ".

آثر الإنسان الأوربي كل هذه الرحلات الافتراضـية الطويلة الملايين من السـنين، في ظلمات الغيب، يلفها الغموض من كل ناحيـة، ولا تنقـذها أو تكمل لها المسـيرة إلا الصـدف أو الفـروض لأنها كـانت -رغم كل هـذا- أفضل من التثليث المسـيحى، ولأنها أقرب إلى الاحتمالات فى حين أن التثليث المسيحى أقرب إلى الاستحالات. وقد لخص هذه المحنة التي ابتلى بها الضمير الأوربي تـلك المنـاظرة المشـهورة ما بين هكسـلى وويلـبر فـورس عن التطـور العلمي والخلق المسـيحي، ففي المنـاظرة سـأل ويلـبر فـورس هكسـلي.. أي نـوع من القـرود قد تحـدر منـه؟ فأجـاب هكسـلى إنه يفضل أن يكون قرداً عن أن يمسخ الحقيقة.

وعنـدما أخذ الإنسـان الأوربي بـالتطور بـدلا من الخلـق.. كـانت تلك هي البداية في حياته الحديثـة. لقد اسـتعاد حريته الوثنية القديمة الـتي ورثها عن اليونـان والرومان وأصبح إلهه هواه. وانطلق فاتحـاً كل أشـرعة الرغبات والأهـواء والـنزوات والإرادات وطلعـات العقل والقلب ليرتاد المحيطات السبعة..

وفي النهاية وجد انه يدور حـول نفسه وأنه أصـبح يعيش ليأكل، لا يأكل ليعيش.. وان كل كفاحه النبيل قد حصر ما بين الإنتاج والاستهلاك...اللذين يفرضـان عليه أن لا يقنع.. وأن لا يشبع...

وكما أشرنا فإن هذه هي مأساة الإنسـان الأوربي وهي مأسـاة كـان يمكن أن لا تحدث لو تعرف على الإسلام حق التعرف.

ذلك أن الإسلام لم يُحَمل أتباعه، بادي ذي بـدئ بـأوزار الضـلالات السـابقة، ولم يضم إليه أسـفار اليهـود أو أناجيل المسـيحيين لأنه يـؤمن أن يد التحريف قد شـوهتها ومسـختها، ولأن الأديـان السـابقة كلها أديـان مرحلية أو خاصة بشـعب دون شـعب. فاكتفى بالإشارة الكلية والموضوعية إليها ثم أصـدر حكمه الجـامع ﴿تِلْـكَ أُمَّةٌ قَـدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وبذلك يدخل المؤمن حراً من الخرافات والتخبطات التي سودت صفحة الأديان القديمة..

ولم يثقل الإسلام المؤمنين بلاهوت معقد لا يستقيم مع الفطرة ولا يمكن للفـرد العادي أن يفهمه بسليقته وطبيعته وإنما لابد أن يُعَرَف به.. وان يسقاه جبراً حـتى وان لم يسغه...

وجـود الله في الإسـلام قضـية فطرية يمكن لكل واحد أن يهتـدي إليها بمثل ما اهتدت به الجارية التي جاء بها صـاحبها إلى النـبي ﷺ ليمتحنها فسـألها النـبي أين اللـه؟ فقالت في السماء.. فقال النبي إنها مسلمة ...

أما وجـود الله في المسـيحية فهو حـدث لابد إن ُيعَّرَف به الإنسـان من مصـدر خارجي. وبدون هذا المصدر الخارجي لا يعرف علاقة الأب، بالابن، وعلاقة الابن بالروح القدس فضلا عن وجود هذا الثالوث..

ولم يدع الإسلام تنافراً بين الروح والجسد بل قال إن لجسدك عليك حقاً، وأبـاح الطيبات من الرزق واثاب على الاسـتمتاع الحلال بها﴿ مَنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْـرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا خَالِصَـةً يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ * قُـلْ إِنَّمَا حَـرَّمَ رَبِّي الْفَـوَاحِشَ مَا ظَهَـرَ مِنْهَا وَمَا

8 **8. تصوير الدكتور كريستيان برنارد بجريدة الأهرام العدد 2/8/1972.**

بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وحث على الزواج، وبرئ تماماً من عقدة الخطيئة. ولم يتطلب الإسلام في الاستمتاع بهذه الطيبات سوى القصد والالتزام بالحدود الموضوعة وهو جزء من الخط العام والطابع الأساسي للإسلام: العدل.

وبالمثل لم يفصل الإسلام بينه وبين المجتمع وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، إلنه رأى أنه لا يمكن إصلاح الفرد في ظل أوضاع فاسدة وهو لا يقر كلمة مثل "دع ما لقيصر لقيصر.. وما لله لله" لأن قيصر وما يملك، والكوكب الذي يعيش عليه والنجوم كلها والسماوات في قبضة الله، ومن ثم فقد وضع القواعد الأساسية لصلاح المجتمع ولتحقيق العدل فيه..

وأهم من هذا كله...

أن الصورة التي قدمها الإسلام لله، والتي أراد بها أن يعين الفطرة السليمة حتى لا تنحرف بها الأهواء كانت من القوة والكمال والشمول والتجرد والموضوعية والحياة بحيث تلزم الفرد الامتثال والالتزام. وقصارى ما يمكن أن يقال عنها هنا- لأننا سنعود إلى هذه النقطة عند الحديث عن عقيدة الإسلام- أن هذه الصورة ترضى الجماهير وتقنع الفلاسفة، وان فيها أقصى الكمال الموضوعي والمطلق جنباً إلى جنب أقصى درجات الحياة والإرادة والقوة. وان العقول تهتدي إليه بحاستها.. دون أن تدرك كنهه أو تبلغ شأوه.

والدليل الذي يسوقه الإسلام للبرهنة على وجود الله. وصفاته الباهرة. هو آياته وخلقه ومشاهد الحياة والموت والسموات والإسلام والحيوان والنبات والنجوم والنظام العجيب الذي يضمها جميعاً. وما من كتاب سماوي آخر يسامى القرآن في بعده عن الأقاصيص الذاتية أو التفاصيل أو المحاولات اللاهوتية وتركيزه على المشاهد الكونية. وقد ذكرت كلمتا السماء والأرض ومشتقاتهما في القرآن حوالي 765 مرة.. في حين ذكرت كلمة الله 980 مرة.

وهذا الاستدلال إلى جانب أنه أقوى استدلال يمكن أن يساق في هذا الصدد، فإنه يكفل نوعاً من معايشة هذه الأكوان الشمسية والممالك الحيوانية والنباتية التي خلقها الله وجعلها أمماً مثلنا تسبح بحمده وسخر بعضها لنا وكتب علينا الإحسان نحوها.

وفي النهاية، فإن الإسلام لا يجعل الحياة تنتهي بالموت. إن هذه الحياة هي الحياة الدنيا، وهناك الحياة الأخرى الباقية.. وبرهان القرآن عليها هو نفسه برهان الخلق. فمن يستطيع الخلق بادئ ذي بد. يستطيع البعث بعد الموت. ولم يعن دين من الأديان بهذه القضية كما عنى الإسلام، والإيمان بها لا يجعل الموت شبحاً مخيفاً رهيباً.. ولا الحياة عبثاً أجوف لا معنى له. إنها كلها ترتبط بالمعاني الكبرى التي يعرضها الإسلام.. سواء كانت خاصة بالمجتمع الإنساني أو قضايا الخلود والإرادة الإلهية...

بهذه الوسيلة يوجد الإسلام غائية إلهية للوجود إنسانياً وكونياً وتعايشاً ما بين الإنسان وبيئته، وسلاماً ما بين النوازع التي تسيطر على النفس، وعدلا في المجتمع، وعالمية بين الأمم التي تجمعها عقيدة الله.. ولا يتصور مع هذا أن يحس الإنسان ضياعاً أو اغتراباً.

وفضلا عن ذلك فإن هذا الوجود الإسلامي والسلام الذي ينشره الإسلام في النفس والمجتمع لا يتميز بسلبية عقيمة كما هو في الحضارة البوذية والهندية ولا بعدوانية كما في الحضارة الأوربية. ولكنه يتسم بديناميكية ما بين الخير والشر، والإسلام يؤمن بإمكان انتصار الخير، إذا تحكم الإنسان في نوازعه.. وسلك النهج الذي رسمه الله له..

وقبل أن ننهى هذا الفصل الذي وجدنا فيه أن التقدم الأوربي بكل منجزاته لم يكف لإسعاد البشرية، وأن له انعكاساته الخطيرة التي تهدد مصير الإنسانية.. فهناك شبهتان لابد من تفنيدهما...

الأولى أننا لا نعارض ولا نضيق بالتقدم المادي ولا ننكر فضله العميم على الحياة من مقاومة للأمراض وتحسين لظروف الإسكان والانتقال والاتصال وإشاعة الثقافة من كتاب أو سينما أو تليفزيون الخ.. إن الجمال، والأناقة والزينة والاستمتاع كلها من النعم التي نشكر الله عليها. وهي من خصائص الحياة الإنسانية، ومما أباحه الإسلام للمؤمنين.

إن محل النقد أمران: الأول السرف والشطط واطلاق العنان للنزوات بحيث يجاوز التقدم حده وينقلب إلى ضده، وإساءة استخدام هذه النعم أو استغلالها في الشر. **والثاني** أن التقدم المادي وحده لا يكفي أبداً لملء الحياة الإنسانية.. فالاستمتاع بمفرده لا يوجد إنساناً، ولكنه يوجد حيواناً مترفاً.. وبحق قارن القرآن بين هؤلاء المتمتعين والحيوان.. ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ ولا تتأتى الإضافة المطلوبة بالنسبة للجماهير والجماعات والحقيقة الكلية بالفنون أو الآداب أو الفلسفات فقد أوضحنا إفلاسها وقصورها **ولكن بالدين وحده الذي يلمس الروح..** ويربطها بالسماء، وبالله رمز الموضوعية والحقيقة المطلقة والكمال الأسمى.. والقوه المبدعة والخالقة. وبقدر ما يحتفظ الدين بأصالته ويبتعد عن التحريف بقدر ما يحقق رسالته الفريدة. وهذا ما لم يتوفر إلا للإسلام بالذات. وأي دين لا يعترف بالإله الأعظم المطلق ولا يقوم عليه يكون لعبة في يد الإرادة الإنسانية بضعفها وقصورها، وأي دين لا يرتب ثواباً وعقاباً في عالم آخر على ما يفعله الإنسان في الدنيا لا يستحق أن يسمي ديناً، لأن الاشتقاق اللغوي لكلمة "دين" يتضمن الجزاء... وأجدر بمثل هذا الدين أن يسمى نظرية، أو مذهب أو أي تعبير آخر.

والشبهة الثانية أن المجتمعات العربية مجتمعات متخلفة وأن معظم سكانها يعيشون تحت مستوى الحاجة، ويقضون حياتهم في معاناة قاسية وحرمان مهين، ولا يزال الشوط أمامهم طويلا قبل أن يصلوا إلى التقدم المجنون أو المحموم الذي وصلت إليه أوربا التكنولوجية. ونحن نسلم بهذا، ونؤمن أن على الشعوب والمجتمعات العربية أن تشمر عن ساعد العمل... مع ذلك فإن من المهم جداً أن نضع ما جاء في هذا الفصل نصب أعيننا، لأن البريق المتألق والفتنة الأخاذة للحياة الأوربية وما تحفل به من مغريات ومظاهر تجعل هذا النوع من الحياة مثلا أعلا للمثقفين العصريين ويورثهم ذلك شعوراً بالنقص تجاه حياتهم وأوضاعهم، وليس هناك ما هو أسوأ من أن نجمع ما بين الفاقة المادية والمهانة النفسية، وهذا حاصل الآن، والشاهد عليه هذا الجنون بالمستوردات والإقبال على الأفلام والأغاني والموسيقي الأجنبية رغم بعدها عن لغة وذوق العربي والتهافت على الرحلات واعتبار السفر إلى أوربا**...** كالسفر إلى الجنة.

فإذا تفهمنا هذا الفصل فسنضع الحضارة الأوربية موضعها السليم. وسنعترف لها بحسناتها، كما سنلم بسوءاتها. وسنعلم أنه وإن كان علينا أن نعمل بجد ورصانة لتحسين الظروف المادية، إلا أن نمط الحياة الأوربية ليس بالنمط الذي يرتضيه، فضلا عن أن يتمناه، المسلم. فالمسلم لا يغبط الأوربي على آلياته، وما يأكل أو يشرب أو يستمتع. وبقدر إيمانه القلبي بالإسلام بقدر ما يكون رثائه للأوربي، لأن مثله الأعلى أعظم من الأكل والشرب والاستمتاع. إنه تنمية ملكات النفس من خلق.. وعدل. وأمانة وقصد، وأن يصل نفسه بذلك العالم العلوي النبيل- عالم الله- بالفكر والتأمل، وبقدر ما يحقق المسلم ذلك بقدر ما يفضل الأوربي في مقاييس "السوبر مان" الحقيقي وبقدر ما يكتسب ذلك، السمت الخاص به، وبقدر.. ما يتفهم هذه الآية ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ58 ﴾ يونس.

***

وخلاصة الفصل أن المجتمع الأوربي عندما جعل التقدم المادي وحده هدفه حقق بالفعل ثورة في رفع مستوى المعيشة والاستهلاك والاستمتاع، ولكن ذلك نفسه جعله لا يشبع قط، فلا ينتهي من تقدم حتى يبدأ في آخر وأوقعه ذلك في حلقة مفرغة جعلته عبدها الدائم لا سيدها الحاكم، كذلك حكم عليه بأن يكون سياق هذا التقدم حثيثاً بل محموماً بحيث أصبح التوتر داء العصر والسرعة طابعه الأساسى. وأدى هذا

بـدوره إلى نـوع من السـطحية- فلا يكـاد الفـرد الحـديث مثلا يقـرأ قـراءة جـادة، لأن القراءة الجادة ليست استمتاعاً، فهي ليست هدفاً، كما أنها تستغرق وقتاً طويلا وبذلك تخالف طابع العصـر، فلا يُبقى عليها إلا بقـدر الضـرورة، وتحل محلها الأخبـار الخفيفـة، والمقتطفات المختصرة، والصور.

ومن العوامل الكبـيرة الـتي دفعت المجتمع الأوربي الحـديث إلى هـذا الاتجـاه تشويه الأكليروس الأوربي للفكرة السليمة للـه، بما حرفه من تثليث وتشـخيص للإلـه. فأبعد كل المفكرين عن الإيمان بالله، وهو نقطة البداية السليمة في الاتجاه واضطروا إلى أن يؤمنوا بالتطور الذي ليس له غاية مرسومة، وعنـدما فقـدوا الغائية الإلهيـة، لم يعد سوى الغائية الإنسانية التي تتجلى في الاستمتاع. وبهذا بدأت الحلقة المفرغة التي يتخبط العالم الحـديث فيها رغم ثرائه الفـاحش، أو بسـبب ثرائه الفـاحش. ولو تعـرف المجتمع الحديث على الإسلام وفكرة الله فيه لكان في ذلك إنقاذه، ولكن الأكلـيروس فرض حصاراً على الإسلام بحيث جهله المجتمع الأوربي الحديث..

إذا كـان الأمر كـذلك فلا يعقل أن نقع نحن الـذين أنعم الله علينا بالإسـلام في خطأ أوربا المميت فنجعل التقـدم المـادي وحـده هـدفنا، وليس ذلك بعد أمر تفرضه العقيدة، ولكنه كـذلك الحل الوحيد الـذي يفرضه الواقـع. لأننا لو جعلنا التقـدم المـادي وحـده هـدفنا، فلن نصل إلى المسـتوى الأوربي وفي الـوقت نفسه سنخسر إسـلامنا ومثلنا العليـا، في حين أننا لو التزمنا بالإسـلام حقـاً، وبلغنا درجة وسـطى من التقـدم لأصبح مجتمعنا أفضل من المجتمع الأوربي، وذلك في دائرة الإمكانيات..

الفصل الثاني

لأن الإسلام أفضل صور الالتزام الاجتماعي

لابد لقيام المجتمع وبقائه وانتظامه من وجود صـور من صـور الالـتزام يمتثل لها النـاس فتحـدد الحقـوق والواجبـات، وتـدور عليها العلاقـات ما بين الفـرد والجماعـة. الجمـاهير والقيـادات.. وتصـبح في مجـال العلاقـات الاجتماعية كالعملة في مجـال التعامل.. أو اللغة في مجال التخاطب.

وبقدر ما تكون هذه الصورة سليمة، واضحة، محـددة بقـدر ما يـؤمن بها النـاس ويحترمونها ويأخـذون أنفسـهم بهـا. وبقـدر ما تمتد منطقة تطـبيق هـذا الالـتزام بحيث تمضى العلاقات بين آحاد الناس أو فئات المجتمع مضياً ناعماً سليماً.. دون تضـارب أو تخبط أو تـضاد. ويكتسب المجتمع الاستقرار والانتظام...

وإذا كانت عقـدة الإلـتزام مبهمة أو غامضة أو متعسـفة أو فضفاضة فـإن إيمـان الناس بها يصبح عشوائياً أو اجتهادياً أو ظنياً ويتفاوت لدى مجموعة من الناس عما هو لـدى مجموعة أخـرى. ولا يكـون هنـاك التحديـد، أو النعومة أو المضي السـليم.. وإنما الفوضى والتخبط والتضارب.. وتصبح البلد في مجال العلاقات كما لو كـانت المجموعة تتحدث بلغات عديدة أو تتعامل بعملات مختلفة**...**

ولو استعرضنا صور الالتزام التي تقـوم عليها العلاقـات وترابط بها المجتمعـات فمن الممكن أن نمـيز بين ثلاث فصـائل من الالـتزام. **الأولى** الالـتزام القسـري والتقليدي الذي ساد العالم القديم. ويمكن أن يلحق به الالتزام الذي يسـود مجتمعـات النظم الشـمولية. **والثانية** الالـتزام القـائم على فكـرة الضـمير الإنسـاني **والثالثة** الالتزام الناشئ عن الأديان، ونجد أسمى صورة له في الإسلام**...**

ففي المجتمع القـديم لم يكن الالـتزام مطلوبـاً إلا من مجموعـات محـدودة من المجتمع تترابط بفضل هذا الالتزام وتحكم بالقوة القاهرة المجتمع المفكك. وقد يصور هذا الالتزام الرباط الـذي كـان يربط الجنـدي الرومـاني برومـا. فـذلك الإيمـان القـوي بروما وسيادتها، وأنها لا تقهر، كان ينتظم الجيش الروماني قـادة وجنـوداً ويعطيه قـوة وفدائيـة.. وبفضل هـذا الجيش قهـرت روما العـالم القـديم وأخضـعته لحكمها وحققت سلاماً يقوم على السيف، فروح الالـتزام الـتي تغلغلت في أعمـاق الجنـدي الرومـاني، وما أنبثق عن هـذه الـروح من نظم كـانت كافية لعـدة قـرون لضـبط العـالم القـديم والإمبراطورية الرومانية..

ونجد مثـالا آخر لهـذا الالـتزام العسـكري في تلك الفرقة العسـكرية الـتي ظلت رعب أوربا حتى تحلل التزامها إلا وهي "الانكشارية" التي كانت تتكون من أطفـال من مجهـولي الأبـاء والأمهـات يربـون تربية عسـكرية ولا يعرفـون أبا أو أما أو التزامـاً إلا الدولة.. وإلا الحرب في سـبيل الدولة واسـتطاعت تركيا بفضل الانكشـارية أن تكتسح أوربا، كما استطاعت روما أن تكتسح العالم القديم بفضل الحرس البريتورى.

وفي القـرون الوسـيطة لم يعد الالـتزام عسـكرياً خالصـاً. وإن أحتفظ بطابعه القسري واتسـعت دائرته إلى حد مـا، فـانتظمت مجموعـات من الأهـالي أو السـكان، وليس الجيش وحـده وأصـبح يكتسب قوته لا من القهر العسـكري، ولكن من التقليد المتوارث المعـزز بـالأمر الواقـع.. وكـان يأخذ شـكل الاعـتراف بالسـيادة من الأصـاغر للأكـابر وإضـفاء الأكـابر الحماية على الأصـاغر. فكـان العامة يلـتزمون بطاعة النبلاء والتسليم لهم بالسيادة، وكان النبلاء يلتزمون بحماية العامة وتأمين معيشـتهم، وبالمثل كان الأبنـاء يعـترفون بسـيادة الأبـاء ويعيشـون تحت كنفهم حـتى بعد أن يـتزوج هـؤلاء الأبناء ويصبحوا آباء**...**

ويمكن أن نلحق بهذه الصورة من الالتزام القسري القديم صورة حديثة لالـتزام قسري نجـده في الـدول الـتي تأخذ بـالنظم الديكتاتورية الشـمولية، ففي هـذه الـدول

يوجد حزب وحيد حاكم يصبح بمثابة الحرس البريتورى بالنسبة لروما أو الانكشارية بالنسبة للدولة العثمانية مع تفرقة هامة هي أن هذين كانا يسلطان على الخارج أو يكلفان بالحماية العسكرية، في حين أن الحزب الوحيد الحاكم يكون حرساً أهلياً يعمل لحماية النظام في الداخل. وعضو هذا الحزب يربى تربية صارمة ويخضع لمران لا يقل عن الضبط والربط العسكري وينحصر ولاؤه في الحزب، وبهذه الطريقة يصبح التجسيد الحي لإرادة الحزب. يعمل لها ويكفل تطبيقها، ومع أنه يستخدم أساساً الإقناع والدعوة، إلا أن جانب القسر والإرهاب غير مستبعد، فهو البديل الوحيد، فعضو الحزب جندي مدني "على ما في ذلك من مفارقة" يعمل لغاية مذهبية في الداخل وليس للحماية العسكرية من الخارج.

ومن الواضح أن الحقيقة الأساسية في هذه الصور من الالتزام هي أنها لا تنظم كل الأفراد، وإنما بعض الأفراد، وأنها تعتمد على القهر والقسر سواء كان ذلك بطريقة صريحة معلنة أو بطريقة مضمرة مقنّعة، وأنها بحكم الوحدة التي تنتج عن هذا الالتزام تكتسب قوة تمكنها من الهيمنة على الكثرة المفرقة والجماهير المشتتة.

وعندما بدأت ظروف الشعوب تتحسن وتساقطت القيود القديمة وانتشر التعليم وأخذت شخصية "الفرد" تتبلور، ظهرت فكرة "الواجب" الذي ينبع من إيمان الفرد بما يجب عليه القيام به بحكم هذا الواجب لا انتظاراً لثواب أو خشية من عقاب وأدى هذا إلى ظهور "الضمير الفردي" ونجد أفضل تمثيل لفكرة الواجب في كتابات الفيلسوف الألماني "كانط".

وتعمقت فكرة الواجب في المجتمع الأوربي، وأصبحت محوراً من محاور التربية في المنزل والمدرسة، وتعود إليها أكثر من غيرها صفات الإتقان والإخلاص والدقة التي يتسم بها الأداء الفردي في المجتمع الأوربي الحديث سواء قام بهذا الأداء ممرضة أو عامل أو مدرس أو أي مهني آخر. وأمكن بذلك لتلك الهيئة الضخمة المعقدة- المجتمع الحديث- أن تسير بكثير من النعومة والنجاح، فهناك أمانة في المعاملة وصدق ودقة في المواعيد ووفاء بالتعهدات إلى جانب التخلص من كل العقد ومركبات النقص التي تورثها التربية الخاطئة أو البيئة الذليلة الفقيرة..

ومع هذا فإن فكرة الواجب، والضمير القائم عليها تعرضت لهزات وتطويرات عديدة ومستمرة لم تكف بأن تنتقص من أطرافه، أو من درجة الإيمان به.. ولكن أيضاً من صميم الفكرة نفسها ومنطقة اختصاصها.. وأساس قيامها. لأن الفكرة قائمة على أساس من فلسفة اجتهادية تخضع وتتطور تبعاً لعدد كبير من العوامل، فبعد **فلسفة "كانط" التي تبنى الواجب على المبدأ، ظهرت الفلسفة النفعية التي تعيد الواجب إلى المنفعة، ثم فلسفة الذرائع "البراجماتزم" التي سلمت إلى حد كبير بأن الغاية تبرر الوسيلة، ثم ظهرت الفلسفة الاشتراكية التي لاشت – نظرياً وعملياً - الإرادة الفردية- وبالتالي الواجب القائم على الاقتناع النفسي، ثم ظهرت كرد فعل لها الفلسفات الوجودية التي لا تعترف إلا بإرادة الفرد وحريته فيما يلزم نفسه به.**

وانعكست هذه التطورات على فكرة الواجب، فأصابتها بتدهور كبير قد يصوره ما انتهت إليه فكرة الواجب في بريطانيا- وهي أبرز بلد تقدس الواجب- من العهد الفيكتورى حتى الوقت الحاضر (قرابة مائة سنة). كما كان هناك مأخذ ووجوه نقص في الفكرة نفسها تمثل في صور من المفارقات ما كان يمكن أن توجد لو كانت الفكرة كاملة وسليمة.

فالحق أن نقطة الضعف في الضمير الفردي هي نفسها مصدر قوته، وأعنى بها فرديته، فهذا الضمير ينبثق من الفرد نفسه، من فكرته عن التصرف الواجب سواء كان اتقانا أو إبداعاً أو إخلاصاً أو دقة. ولكن هذه الفكرة لا تقوم على عقيدة أو دين أو نظرية أو معيار موضوعي ينصب على العلاقات الاجتماعية. وبهذا التخريج وحده نفهم كيف ساغ للضمير الأوربي أن يرتكب تلك الكبائر والموبقات التي تتضمن فيما تتضمنه الاستغلال الوحشي للأطفال والنساء في مستهل الثورة الصناعية، والاستنزاف الرهيب لموارد وثروات المستعمرات، وما أوقعه الأوربيون من جرائم ومنكرات

أسـهمت فيها الشـعوب الأوربية كلها حـتى آخرها دخـولا ميـدان الاسـتعمار كإيطاليا وألمانيا طـوال القـرن التاسع عشر واسـتهدفت آسـيا وأفريقيا على حد سـواء، كما أن الإنسان يعجز عن أن يسيغ كيف أن هذا الضمير تقبل معاملة الأجنـاس الملونة معاملة مهينة. ووضع، لمجرد اللون، تلك الحواجز التي تحول دون تقدمها. وهناك فقـرة حـاول مفكر من أكـبر المفكـرين الأوربـيين هو مونتسـكيو أن يـبرر بها اسـتغلال الأجنـاس الأوربية. وجاءت في كتابه الشهير "روح القوانين".

"إذا طلب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيداً فـأني أقـول إن شـعوب أوربا بعد أن أفنت سـكان أمريكا الأصـليين لم تر بـداً من أن تسـتعبد شـعوب أفريقيا لكي تستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة. والشعوب المذكورة ما هي إلا جماعـات سـوداء البشـرة من أخمص القـدم إلى قمة الـرأس، وأنفها أفطس فطساً شنيعاً بحيث يكاد يكون من المستحيل أن ترثى لها، ولا يمكن للمرء أن يتصـور أن الله سـبحانه وتعـالى – وهو ذو الحكمة السـامية - قد وضع روحـاً - وعلى الأخص روحاً طيبة - في جسم حالك السواد"[9].

وفي داخل المجتمع الأوربي نفسه تمزق الاضطرابات وحـدة الشـعب، وتوجد ما يشـبه الحـرب الأهلية الصـناعية وتعـرض عامة الشـعب لصـعوبات ومشـاق لا حد لها وتهوى بالاقتصاد القومي. فإضراب عمال مناجم الفحم في بريطانيا الذي استمر بضعة أسـابيع في النصف الأول من عـام 1972 شل الحيـاة تمامـاً، وأوقف القطـارات والمواصـلات وجعل النـاس تعيش على ضـوء الشـموع! ثم أنتهي بتعـويم الجنية الإسـترليني. وإضـراب عمـال المـواني في أواخر يوليه وأوائل أغسـطس سـنة 1972 أوقع خسائر بواقع 1200 جنيه لكل يوم تقضيه كل سـفينة شـحن متعطلـة. وقد عطل الإضـراب خمسـمائة سـفينة على الأقل لمـدة أسـبوعين فضلا عن خسـائر الأخـرى التبعية**...**

وفي أمريكا تنتشر الجريمة وتستشـري وتأخذ الطـابع التنظيمي الـذي تأخـذه الهيئـات العامـة، ومن هنا يطلق عليها "**الجريمة المنظمة**" أسـوة بالنقابـات أو الأحزاب أو الكنـائس، فتوجد عصـابات لها مجـالس إدارات وفـروع وأجهـزة وهي تضع خططها بدقة مستعينة بـالفنيين والخـبراء، بالإضـافة إلى الجريمة التلقائية والعشـوائية التي وإن لم تكن في أهمية أو خطورة الجريمة المنظمة، إلا أنها زادت زيادة كبيرة مع زيادة التصرفات اللامعقولة والشذوذ والسادية التي تضـرمها مشـاهد العنف والتعـذيب في الروايات السينمائية بحيث أصبح من العسير أن تأمن النساء السـير بمفـردهن في معظم المدن الأمريكية ليلا. وأطلق على "المافيـا" وهي كـبرى عصـابات الأجـرام في شـيكاجو "الحكومة الثالثـة" بعد الـبيت الأبيض والمخـابرات المركزية وأظهـرت الإحصائيات أن معدل الجريمة في الولايات المتحدة سنة 1971 كالآتي:

حادث سـرقة كل 82 ثانية.

حـادث قتـل كل 30 ثانية.

حادث اغتصاب كل 13 ثانية.

وليس ما هو أدل من الإضـراب والجريمة على تـدهور الضـمير الاجتمـاعي، وأن الضمير الفردي إذا كان موجوداً فإنه لا يملك شيئاً في ميدان العلاقات...

بل إن الضمير الفردي قد عجز عن أن يكون أداة "تهذيب" بالمعنى الكامـل، إذا لم يعصم الفرد الأوربي من الانغماس في عادات ضارة أو الاستسلام لنزوات شـاذة أو التورط فيما يؤدى إليه ذلك من كذب أو نفاق أو تحايل بعيد، بل مضاد، لفكرة الـواجب والضمير نفسها كما هو ملموس في السرف والشـذوذ الجنسي والتعلق بعـادات ذائعة الانتشار كإدمان المسكرات والقمار والمراهنات فضلا عن المخدرات التي بدأت تدخل المجتمعات الغربية.

---

9 **9. الكتاب الخامس من الفصل الخامس. روح القوانين. استشهد بها الدكتور محمد عوض في كتابه "الاستعمار والمذاهب الاستعمارية" ص 41.**

هـذه كلها تنم على أن الضـمير الفـردي الأوربي لم يقم على أسـاس أصـيل أو مطلـــق، وأن العوامل النفعية والفردية والنســـبية غلبت الأسس المبدئية والعامة فيه بحيث أصبح محلياً يختلف بـاختلاف مكانـه. فالضـمير الأوربي يعمل في المسـتعمرات بطريقة غـير الـتي يعمل بها في أوربـا. وهو في أوربا بالنسـبة للعمـال غـيره بالنسـبة لأصحاب الأعمـال وهو بالنسـبة للأبنـاء غـيره بالنسـبة للآبـاء بحيث يكـاد أن يكـون في حـالات عديـدة صـيغة للمثل المشـهور "أنا وأخويا على أبن عمى، وأنا وابن عمى على الغـريب" وهو ما يتفق مع ذاتيته وبعـده عن الموضـوعية والإطلاق وأنه في المحصـلة الأخيرة، وإن كان إسهاما طيباً في عـالم السـلوك، إلا أنه يعجز عن أن يكـون المحـور الذي يدور عليه المجتمع.

ويختلف الالـتزام الـذي ينبع من الأديـان السـماوية عن الصـورتين السـابقتين للالـتزام: صـورة الالـتزام القسـري للقلة الحاكمة تجـاه الكـثرة المحكومـة، وصـورة الضمير الإنساني القائم على فكرة الواجب، لأن الالـتزام في الأديـان السـماوية لا ينبع من فكـرة يضـعها الفـرد نفسـه، أو تفرضـها القلة الحاكمـة، ولكن من الإيمـان بالله والإيمان باليوم الآخر.

فالإيمان بوجود إله سماوي (تفرقة عن الآلهة الوثنية) قوى، قـادر، كامل يكشف عن المثل الأعلى ويعطى قبساً لما يجب أن تكون عليه التصرفات والأعمال والعلاقات والقيم، أو يكون كمرآة تعكس شعاعاً من أشعة تلك الشـمس البـاهرة ينم عن أصـلها العظيم، وبقدر عبقرية الدين فى تصوير الله، بقدر ما ينعكس ذلك الضـمير. فـإذا كـان الإنسان لا يرى الله ومع هذا فإنه يلتزم بتعليماته... وينفذ توجهاته فإن هـذا هو ما يوجد بذرة الضمير.

وبالنسبة للضمير بالذات. فإن للإيمان باليوم الآخر أثراً لا يقل عن أثر فكرة الله نفسها، حتى وان كانت فكرة اليـوم الآخر مبنية على فكـرة اللـه، لان إرجـاء الحسـاب على الأعمال عقابـاً وثوابـاً إلى يـوم لا يـأتي إلا بعد المـوت أبعد عمليـاً فكـرة الثـواب والعقاب طوال الحياة الدنيا وأضـفى عليها الطبيعة المبدئية بقـدر ما أبعد عنها الطبيعة النفعية (رجاء الثواب أو خوف العقاب) ووجد بـذلك الضـمير ومن ثم جـاز لبريسـتد أن يطلق على تاريخه لمصر القديمة "فجر الضــمير" لأن الديانة المصــرية القديمة تكـاد تكـون الديانة الوحيـدة الـتي تسـامى الإسـلام في الاحتفـال بـاليوم الآخر والحسـاب والعقاب وهى الأولى والسابقة فى هذا المجال..

ويستتبع بناء الضمير على فكرة الله واليوم الأخر، وليس على فكرة الــواجب أو القلة الحاكمـة، اختلافـاً في طبيعة الالـتزام الصـادر عن كل منهما ينسـحب على بنـاء ووظيفة ومنطقة نفوذ وتطبيق هذا الالتزام. فقد رأينا أن فكرة الـواجب لم تسـتطع أن تثمر إلا ضميراً فردياً، لأن الأسس التي قـامت عليها ذاتية ووضـعية واجتهادية ولم تكن أبـداً حـتى في أفضل أيامها موضـوعية كاملة الموضـوعية، من أجل هـذا ظهـرت تلك العيوب الجسيمة في الضمير الفردي الـتي أشـرنا إليهـا، والـتي أبرزها عـدم الشـمول لجـانب العلاقـات والأوضـاع العامـة، وافتقـاد الموضـوعية الحقيقية وبالتـالي تعرضه للتقلبات وتأثره بالتغييرات، وأخيراً فشله في مجاله الخـاص – نفس الفـرد- عن إيجـاد وازع تهـذيبي يقـوى على صـدور الشـرور والآثـام أو مقاومة إغـراء صـنوف الاسـتمتاع الشاذ الـتي سـمحت بها فكـره الحرية الـتي قـام عليها المجتمع الـديمقراطي، وأتاحها التقدم المذهل في صنع وإشاعة وسائل اللهو.

ويبرأ الضمير الذي يقـوم على فكـرة الله واليـوم الآخر من هـذه العيـوب كلهـا. ونجد أفضل صوره لهذا الضمير، وبالتالي الالتزام، في الإسلام بالـذات لما تيسر له من عوامل خاصة...

ففكرة الله في الإسلام وصلت من الوضوح والقـوة، والنقـاء والكمـال درجه لم يبلغها أي دين آخر على ما أشرنا إليه في الفصل الماضـي، وما سـنعود إليه في البـاب القادم.

وفكـرة اليـوم الآخر لم تتعمق في دين سـماوي كما تعمقت في الإسـلام، وقد أوضحنا أن هذه الفكـرة هي المسئولة عن تحويل مـبرر الأداء من المـبرر النفعي إلى المبرر المبدئي، أو العقيدى ...

وعزز هذا التحويل أن الإسلام لا يعترف باكليروس ولا يبيح وصـاية على الضـمير من أي نوع وبذلك أصبح هذا الضمير موصولا بالله مباشرة.

وأخيراً.. فإن الطابع الأساسي للإسلام هو العدل..

وهذه نقطة تحتاج إلى بعض إيضاح..

فمع أن الـديانات السـماوية واحـدة في جوهرهـا، إلا أن إرادة الله الـتي اقتضت نـزول أكـثر من دين، وأكـثر من نـبي، اقتضت أن يكـون لكل دين طـابع رئيسي يمثل أصدق تمثيل الاحتياج الأساسي للذين نزل إليهم هذا الدين في الفـترة المعينة لنزولـه. فاليهودية مثلا قـــامت وسط الوثنية المصـــرية العريقـــة، وأنـــزلت لبـــني إســـرائيل المسـتعبدين، ومن هنا كـان طابعها الأساسي هو "الصـرامة" ليحـول دون تـأثر هـذا الجنس الـذليل بمظـاهر الوثنية المصـرية، أو يصـاب بالاسـتخذاء أمـام الاسـتعباد الفرعوني.. وبهذه الصرامة نجحت الديانة اليهودية أن تكون رسالة إنقاذ وتحرير..

ولكن بنى إسرائيل القساة المحـرفين لم يخرجـوا من نـير الفراعنة إلا ليدخلوا في نير روما، الذي كان أقوى واعتي من النير المصري. ولزم الأمر تحريراً جديداً على يد المسيحية، ولكن بأسلوب مختلف اسـتبعد المقاومة المسـلحة أو القـوة أو الفـرار.. لأن بطش الرومان فاق كل حد، وشمل الأرض بأسرها وقتئـذ، وكـان الانتصـار الممكن هو عن طريق اللاعنف الـذي يأخذ أعلا صـوره في "الحب"، ومـرة أخـرى انتصـرت المســيحية بســلمها وحبها على الإمبراطورية الرومانية بســلاحها وعتادهــا.. وخيلها وَرْجلها..

أما الإسلام، فقد أملى الطابع الرئيسي له أمـران: **الأول** الشـمول الـذي أتسم به الإســلام، وأنه يعــالج كافة مجــالات الحيــاة الاقتصــادية والسياســية والاجتماعية والعباديــة.. وأنه أنــزل لكل الشـعوب ولكل الأجنـاس. **والثـاني** أنه آخر الأديـان، فلا رسالة بعده. وقضى هذان العاملان أن يكـون الطـابع الرئيسي للإسـلام هو العـدل لأنه فضيلة الفضائل، والفضيلة الاجتماعيـة.. فضـيلة الجمـاهير والقيـادات.. وهو الـذي يضع كل عامل في مكانه السليم.

فالصرامة التي اتسمت بها اليهودية لا تصـلح إلا لجنس معين، في ظـرف معين، ولكنها ليست مركب كل يوم.. وكل حال..

وفي الطـرف المقابل – الحب المسـيحي- إنه أيضـاً حالة طارئـة، أو مثل أعلا.. ولكنه ليس الدأب الدائم أو المعيار الذي تـقاس به التصرفات أو تدور عليه الأمور.. ولا هو مما يمكن أن نطالب به الناس. ولو كان ممكنا، فليس هو بالمبـدأ الأمثل لأنه يعتمد على ملكات العواطف والأحاسيس والمشاعر أكثر من ملكات التفكير النزيه المحايد.

وقد يذكر البعض مبادئ أخرى، كالحرية مثلا، ولكن الحرية دون عدالة لا تعنى إلا انتصار الأقوياء سواء كانت هذه القوة قوة جسد أو مال أو حكم.. وسـواء جـاءت هـذه القـــوة عن طريق الاســـتحقاق أو الإرث أو الحظ أو الحيلة أو الخـــداع.. وقد أظهـــرت تجربة المجتمع الأوربي للحرية سوءاتها في المجالين الاقتصادي والسياسي على سواء.[10]

قد يقـــال "المســـاواة"، ولكن المســـاواة لا تكـــون إلا في الفرصة أو عند خط البداية، أما إذا سوينا بين الناس في كل شئ فسنظلم البعض.. وسنحابى البعض، ولن يكون هذا من المساواة في شئ!

---

[10] **10. أنتهى تفكيرنا إلى أن العدالة أحوج إلى الحرية من حاجة الحرية إلى العدالة، والحرية فى الإسلام مفترضة فى مبدأ البراءة الأصلية الفطرية، وتأتى العدالة بضبطها..**

إن أي واحد يمـارس العمل الإداري أو الاجتمـاعي أو السياسـي. أو يلم بطبيعة النظم والنفوس البشرية يكاد يشعر بـالتقزز عنـدما يسـمع تلك الكلمـات ذات الطـنين الأجـوف الـتي لا يـراد بها إلا الاسـتهلاك المحلى أو استرضـاء المشـاعر أو التضـليل والخداع، ويستبين صدق صيحة مدام رولان عندما اقتيدت لتعدم باسم الشعارات الـتي عملت لها: الحرية.. الإخاء.. المساواة.

ليس إلا العدل.. وحده.

فالعدل هو التـوازن في الفضـائل، ووضع كل فضـيلة في مكانهـا، أما أي فضـيلة واحدة فإنها "طرف" في القضية الاجتماعية بكل ما في أي طرف من ميل أو اتجاه أو تحيز..

وقد يتصور البعض أن العدل يكون على حساب الحرية..

ولكن هذا لا يستقيم، ويكون نوعاً من المغالطة.

لأن العدل يتضمن بداهة العدل في الفضـائل، فلا يتصـور العـدوان على إحـداها. ولو حدث لما كان عدلا.

من أجل هـذا قلنـا، وسـنقول دائمـا، إن الـرأي والفكر والعقيـدة يقع في مجـال الحرية..

أما الاقتصاد والإنتاج والأمـوال فتخضع للتنظيم وهـذا ما نسـميه بالعـدل ويوجب القرآن اتباع العدل في أسلوب بلغ الغاية من القوة والوضوح ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْـدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ {15 الشـورى}. ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُـوا بِالْعَـدْلِ ﴾ {58 النسـاء}. ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ {18 المائدة}. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ {90 النحـل}. ﴿فَـإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْـدِلُوا فَوَاحِـدَةً﴾ {3 النسـاء}. ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ {135 النساء}.

وقد يسـتخدم القـرآن كلمة القسط المرادفة للعـدل وكأنما يريد أن يؤكد معـنى العدل بلفظ آخر، وقد يستخدم تعبير "المـيزان" ليصـور عملية العـدل. أو يضع معيـاراً دقيقاً غاية في الدقة "مثقال ذرة" حتى يرسخ المعنى في الأذهان.

﴿ شَـهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ وَالْمَلائِكَـةُ وَأُوْلُـوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْـطِ﴾ {18 آل عمـران}. ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَـاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْـطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِـطِينَ﴾ {42 المائدة}. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْـطِ شُـهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَـوْ عَلَى أَنفُسِـكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ {135 النساء}. ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْـطَ لِيَـوْمِ الْقِيَامَـةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ {47 الأنبياء}. ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُـومَ النَّاسُ بِالْقِسْـطِ 25﴾ الحديد. ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ {117 الشورى}. ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُـولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ {47 يونس}.

وأظهر من هـذا في إبـراز العدالة الاسـتنكار الغليظ للظلم، وقد تعـددت استنكارات القرآن للظلم، وكافة مشتقات الكلمة – وبلغت هذه الاستنكارات أكـثر من 280 مرة. وكما سما الله عز وجل نفسه العدل، فأنه حـرم على نفسه الظلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ﴾ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيـدِ﴾ واسـتبعد الظلم يـوم القيامة ﴿وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ ﴿وَلا يُظْلَمُـونَ نَقِـيراً﴾ ﴿وَلا يُظْلَمُـونَ شَـيْئًا﴾ ﴿الْيَـوْمَ تُجْـزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَـبَتْ لا ظُلْمَ الْيَـوْمَ﴾ وأعتـبر الظلم معـادلا للشـرك وسـبباً في العـذاب أو التحـريم ﴿فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَـادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْـرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَظَلَمُـوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِـرَ لَهُمْ﴾ ﴿فَقُطِـعَ دَابِـرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وتعددت الأحـاديث النبوية في هـذا المعـنى "الظلم ظلمـات يـوم القيامـة" "اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب" "عـدل سـاعة خـير من عبـادة سـتين عاما".

وهذه الإشارات كلها تـوضح أن العدل في الإسـلام أعظم مما قد يفهمه البعض، إنه ليس عدالة اقتصادية، أو حـتى عدالة الجـزاء والحكم فحسـب، ولكنه أساسـاً منهج في الحياة والطابع الرئيسي للإسلام الـذي تتسم به كل الأوامر والنـواهي والتصـرفات الإسلامية بحيث تكتسب القصد والتوازن، وتبعد عن السرف والشـطط في كل ناحيـة، حتى الـدين نفسه ﴿فأوغل فيه برفق﴾ وحـتى عنـدما لا تبـدو هنـاك فائـدة نفعية كـالأمر بالاقتصاد في الوضوء ﴿وإن كنت على نهر جـار﴾. وفي سـبيل العـدل حـرم الإسـلام كل صـور الميـول الشـاذة والمسـرفة، وأغلق البـاب على كل ما يفتح المجـال للسـرف والشطط فحرم الخمر والميسر لأن لهما سورة وضراوة تذهب بالقصد والاعتدال ولأن بابهما إذا فتح، فإن من العسير إغلاقه..

وأينما قلبت النظر في الإسلام وجدت معـنى العـدل غالبا على ما عـداه، فهنـاك عدل حتى بين الأديان بعضها بعضـا، وهنـاك عـدل ما بين الفـرد والمجتمـع، وعـدل بين الـدنيا والـدين وعـدل بين الرجـال والنسـاء وعـدل بين الأغنيـاء والفقـراء والحـاكمين والمحكومين، بل بالعدل قامت السموات والأرض، والله تعالى يسمى نفسه العدل.

قد يقـول قائل إن نظرية العــدل قديمــة، نجد أصــولها في فلســفة أرســطو. فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكـرم وسط بين التبـذير والبخـل. الخ.. والعقل هو الذي يعين الوسط. والنقص في هـذه النظرية هو أن أرسـطو – كمدرسة العقلـيين من فلاسـفة الإغريـق- ارجع تحديد الوسط إلى العقـل، ومع أن ذلك يعين ولاشك على التحديـد، إلا أن العقل في مجـال الأخلاق والفضـائل ليس الأداة الوحيـدة أو المحكمـة، فعقول الأفراد تتفاوت، وحتى إذا أدركت المكان السليم فإنها تعجز عن حمل الإنســان على الوقـوف عند هـذا الموقـف، لأن الإنسـان مـركب من غرائز وعواطف وهو يعيش وسط مجتمع وظروف وبيئات متباينة تؤثر إلى حد كبير على العقل الفردي الـذي ليس هو بالطبيعة أو الضــــرورة أخلاقيــــا. وهــــذا هو النقص الأساسي في نظرية المعرفة لسقراط، فقد اعتقد سقراط أنه ما أن يعرف الإنسان الخير والشر ويميز بينهما حـتى يفعل الخير ويجتنب الشـر. ولكن الحقيقـة، كما هو معلـوم، أنه لا يكفى قط أن يعـرف الإنســان الخــير والشر (إذا كــان من الممكن أن يعــرف تمامــاً) ليفعل الأول ويجتنب الثاني. ومن هنا كان من الضروري أن يضع الدين الأسس الموضـوعية والدائمة للخـير والشر وأن يكل إلى الضمير تعرف هذا الموقف وتفهمه، لأنه قد يكون أقدر من العقل على تلمسه والاهتداء إليه، ولم يكن عبثا أن يستخدم القرآن كلمة قلب أو قلوب مكان عقل أو عقول ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ {179 الأعراف}. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ {46 الحج}. ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ {24 محمـد}. وقد قـال النـبي ﷺ "الإثم ما حـاك في صدرك" وقال "استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك".

من أجل هـذا لا يـدع الإسـلام عملية "التعـديل" أو الوصـول إلى العـدل للضـمير الفـردى وحـده، ولا يتركها تائهـة.. ضـائعة، ولا هو يحـدد نقطة الوسط الحسـابية الـتي تلزمها استاتيكية جامـدة، ولكنه يوجهها الوجهة الـتي تنتهي إلى العـدل فعلا ويضع على طريقها معالم تؤدى بها إليه.

ومن ناحية أخرى فإن الإسلام يلطف هذا التحري للعـدل بـالحث على العفو عند الإسـاءة، وقبـول التوبة عند النـدم على المعصـية، والزيـادة على ما يوجبه العــدل، والرحمة عند القـدرة. وهي كلها تلطف من صـرامة العـدل عنـدما يتطلب الأمر ذلـك. ولكن الإسلام لا يفرض فرضاً هذا الفضل لأنه لن يصبح فضـلا، ولكن عـدلا، ولن يكـون لمن يؤثره الميزة الخاصة المستمدة من تجاوزه لدائرة العـدل احتسـاباً وقـربى ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ..﴾ {40 الشـورى}. ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنسَوْا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ {237 البقرة}. ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ {

14 التغابن}. ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ {30 فاطر}. ﴿ولا يأتل وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ {22النور}.

وهكذا نرى أن الإسلام يوجب التزاماً يجمع بين كل "الكمالات" المتصورة فهو:

- **ينبثق عن إيمان بالله واليوم الآخر، أي أنه يرد من مصدر يمثل الحقيقة الموضوعية والكمال والثبات ولا يقوم على أسس ذاتية، وضعية، متقلبة.**
- **وفي الوقت نفسه فإن هذا الإيمان ليس مفروضاً بقوة قاهرة أو سلطة خارجية ولكنه الاقتناع والاختيار والتطوع.**
- **كما أن طابعه الأساسي هو العدل، وهو أصدق وأفضل طابع لالتزام اجتماعي.**
- **ولما كان للإسلام مثله العليا، فإنه يحث على العفو سلباً، والفضل إيجاباً. أي الارتفاع درجة فوق مستوى العدل، وبذلك يفتح الباب أمام الذين دائماً يؤثرون الفضل دون أن يكون هناك لوم على الذين لا يسمحون بغير العدل.**

الفصل الثالث

لأن الإسلام أبرز مقومات الشخصية العربية

كان المبرر الأول الذي أوردناه للإيمان بالإسلام هو أن التقدم المادي لم يحقق لإنسان العصر الحديث السعادة المنشودة، بل إنه أشعره الغربة والضياع وجعل معيشته قسمة ما بين توتر الإنتاج واجترار الاستمتاع وقضى على سلام نفسه وغائية وجوده، ولا شفاء لهذا كله إلا بإيمان يجاوز الاستمتاع المادي ويشبع التسامي الروحي ويربط الوجود المادي بعالم القيم ويحقق نوعاً من التعايش والتناغم بينه وبين الكون من أرض وسماوات ونجوم ويصله بالقوة العظيمة الخالقة له.. والمهيمنة عليه، وهذا ما لا يتأتى في أفضل صوره إلا في الإسلام.

وكان المبرر الثاني هو أن الإسلام يقدم أفضل صورة يقوم عليه المجتمع. إلتزام ينبع من ضمير حر لا وصاية لسلطة عليه. وهو في الوقت نفسه موصول بأكمل تصور ممكن لله. ويستمد طبيعته ومادته من دين جعل هدفه وطابعه "العدل" وهو الفضيلة **الاجتماعية.. أو فضيلة الفضائل. وبذلك يتسم الالتزام الإسلامي بحرية لأنه ينبع عن ضمير، وسمو لأنه موصول بالله.. وتوازن لأنه مستمد من العدل...**

وسنتحدث الآن عن مبرر ثالث أضيق دائرة من المبررين السابقين لأنه لا يعرض لإنسان العصر الحديث بصفة عامة. ولا يعنى بالالتزام بصفة مطلقة، ولكنه ينصب على المجتمع العربي بالذات. ولعل هذا المبرر على أنه أضيق الثلاثة -أو لهذا بالذات- أن يكون أهم المبررات في الفترة التي نحن فيها، والتي تمر فيها الأمة العربية بفترة من القلق الانتقالي، والفراغ المذهبي.

ومن البدائه المعروفة أن الأمة لا تكون أمة إلا عندما تتوفر لها شخصيتها الخاصة بها والمميزة لها، وأن هذه الشخصية بدورها تتكون من مجموعة "مقومات" تكون بمثابة القسمات والمعالم التي تميز شخصية عن أخرى.. وشأن الأمم في هذا شأن الأفراد، بل الأشياء أيضاً.

إن ركاماً متناثراً من الأحجار لا يمكن أن يسمى بناءً، وإن مسيلا ضحلا دون عمق أو غاية لا يمكن أن يسمى نهراً، وإن ثلاثين أو خمسين مليونا من الأفراد.. لا يمكن أن يكونوا أمه

لابد للأحجار أن تشذب وتهذب وتأخذ شكلا واحداً ثم يحفر لها أساس ويرتفع على هذا الأساس وطبقاً له أدوار متماسكة.. حتى يتكون ما يسمى بناء. ولابد أن يكون للمياه منبع تنبع منه، ومصب تصب فيه ومجرى تنحته وتعمقه يوماً بعد يوم في سطح الأرض حتى يوجد النهر، ولابد أيضاً من مقومات تميز الثلاثين أو الخمسين مليوناً وروابط تربطهم وتوحد بينهم حتى يصبحوا أمة واحدة، وليس مدلولا حسابيا...

وما هي هذه المقومات..؟

لقد ارتأى علماء الاجتماع أنها وحدة الأرض والجنس واللغة والدين والمصلحة والتراث والتاريخ، ولكنهم يختلفون اختلافاً كبيراً حول أهمية كل عامل من هذه العوامل في تكوين الأمة ودرجة أولويته بين بقية العوامل. فذهب دوركيم ومجموعة من العلماء الفرنسيين إلى أن الدين هو محور الظواهر الاجتماعية وأهمها على الإطلاق وذهب أخرون إلى أن 75% من حضارة أي مجتمع يكون أساسها الدين. وممن يرون ذلك أيضاً توينبى الذي يؤمن أن العامل الذي يضم المجتمع في إطار واحد ليس الوحدة القومية أو السياسية أو الجنس، ولكنه عبادة مشتركة أو دين.

وذهبت المدرسة الألمانية إلى أن اللغة هي أبرز مقومات الأمة..

وادعت النازية أن الجنس، ممثلا في الدم. هو العنصر الفعال في تكوين الأمة. وقاوم معظم العلماء هذا الرأي وفندوه وشنوا عليه غارة شعواء رغم أن صدى هذه النظرية لا يزال يتردد فيما تقوم به كل الأجناس الأوربية والأمريكية من تفرقة عنصرية..

ولا ريب في أهمية "الأرض" فهي الوعاء الذي يضم الأمة، والتربة التي تنميها وتؤثر عليها. ومع هذا فقد وجدت مجموعات فقدت لسبب أو لآخر أرضها. ولكنها لم تفقد شخصيتها، أو حتى قوميتها، لأن عوامل أخرى كاللغة والدين والتراث القديم جمعت بينها، كما يحدث أن تتأثر الأرض تبعاً للمقومات وتخضع لها بحيث لا يستطيع الجبل الأشم أو النهر العميق أو الصحراء الشاسعة أن تقطع الروابط الأخرى، أي أن المقومات هي التي تحدد الأرض أكثر مما تحدد الأرض المقومات..

وهناك المصلحة المشتركة، ولكن المصلحة كثيراً ما تكون عامل تفريق لا عامل تجميع، فضلا عن توحيد، فقد كانت مصلحة الولايات الجنوبية غير مصلحة الولايات الشمالية، وأدى ذلك إلى الانشقاق وكانت الحرب التي استمرت أربعة أعوام كاملة هي "البوتقة" التي وحدت الولايات...

فالمصلحة التي تجمع الأسرة هي نفسها المصلحة التي تفرق الأسرة بحيث يتركها الأبناء عندما يكبرون ويتزوجون..

ورأينا الخاص أن العامل الأساسي والأول في تكوين الأمة هو التاريخ، فالأمة تتكون تاريخياً أكثر مما تتكون جغرافياً أو جنسياً. أو مصلحياً، لأن التاريخ بمثابة بوتقة، والبوتقة هي التي تصهر الآحاد وتذهب الاختلافات وتخرج "سبيكة" خالصة.. لا تجد جزءاً منها يختلف عن جزء، لأن أي عنصر من عناصر الاختلاف قد ذاب في المجموع وذهب أثره المحدود في السبيكة كلها، وهو "أي التاريخ" بمثابة الجذور التي تمسك الشجرة، بقدر ما يمضى عليها الوقت، بقدر ما تتغلغل عميقاً في الأرض، ويصبح من العسير زعزعتها فضلا عن اقتلاعها، **وروح التاريخ الإنساني هي العقيدة** الدينية، فهي بمثابة "المعامل" الذي تدور عليه، وبه أحداث التاريخ.

وبالنسبة للأمة العربية، فإن عمقها التاريخي يزيد على ألف وثلاثمائة سنة، هو تاريخها الإسلامي. أما جوهر هذا التاريخ فهو العقيدة الإسلامية، وما أثارته هذه العقيدة من قضايا سياسية واجتماعية وفكرية، وهو لا ينفى أن للأمة العربية قبل هذا عمقاً يكمن في منطقة اللاوعي، وهو بدوره لا يختلف عن التاريخ الواعي من ناحية أنه تكون تكويناً تاريخياً حول عقائد دينية كانت تمثل الصورة البدائية غير المصقولة أو المهذبة للفكرة الدينية.. وقد واصلت هذه العقائد التطور حتى وصلت إلى صورتها الأخيرة، والكاملة في الإسلام.

هذا هو رأينا الخاص. ولكننا حتى لو أخذنا بأي نظرية من النظريات المختلفة في مقومات الأمة. فستكون نهاية المطاف الإسلام، وذلك لخاصية فريدة تميز بها الإسلام بالذات هي أنه كما سنرى جماع اللغة والتاريخ بحيث يكون هو المبلور لشخصية الأمة العربية والمعامل لتاريخها وحضارتها... وهو أمر لا يكاد يكون فرضاً يراد له الإثبات قدر ما هو حقيقة لا ينقصها إلا الإيضاح والتبيان.

ففى كل الدول العربية سواء كانت مصر القديمة أو فينيقية "سوريا" أو أشور أو بابل، أو حتى جزيرة العرب، كان الدين هو قوام المجتمع وجذره.. هو ملهم الفنان، هو مرجع التشريع، هو أصل السلطة، هو نبع السلوك والآداب والتقاليد.. وبحق قال شوقي:

فإذا قيل ما مفاخر مصر　　　قيل فيها إيزيسها الغراء

ولكن الدين في العصور القديمة على أهميته، وعلى أنه طبع خلال هذه المرحلة شخصية المصري، والأشوري، والفينيقي وكون "لا شعور" كل واحد من هؤلاء، فإنه كان بالنسبة للمنطقة كوحدة عامل تفريق لا عامل تجميع، لأن آلهة المصريين كانت غير آلهة الفينيقيين، وآلهة هؤلاء كانت غير آلهة الآشوريين. ولم تنجح المسيحية في

تصحيح هذا الوضع أولا لأنها لم تضم كل سـكان المنطقـة. وثانيا لأن الـوقت لم ينفسح لها طـويلا، فقد تمسك المصـريون القـدماء وغـيرهم بـدياناتهم القديمة طـويلا ولم يكد يؤمن معظمهم – وليس كلهم - بالمسـيحية ويـؤثرون فيها أكـثر مما يتـأثرون بها حـتى فجـأهم الإسـلام. ومن الحقـائق المعروفة أن المصـريين تمسـكوا بالـديانات الوثنية وخاصة ديانة إيزيس حتى القـرن الخـامس بعد الميلاد. وعنـدما تلقت الوثنية المصـرية الضـربة المميتة بصـدور مرسـوم الإمـبراطور المسـيحي ثيودوسـيوس (379-395 م) بحظرها، وانهال بطريـرك الإسـكندرية تـاوفيلاس واتباعه على المعابـد، وتفـرق الكهنة المصــريون في البلاد، وخاصة الجنــوب حيث واصــلوا عبــادتهم القديمة وبقى تمثــال إيزيس قائماً في جزيرة فيلية في حماية أسلاف النوبـيين حـتى تمكن أسـقف أسـوان تيودورس في حكم الإمبراطور يوستنيانوس (527-565م) من تنكيس الصــنم وتحويل المعبد إلى كنيسة([11]) فلم تكن المسيحية بالراسخة عنـدما جـاء عمـرو بن العـاص إلى هذه البلاد سـنة 640 أي بعد مائة سـنة فحسب من سـقوط آخر قلاع الوثنيـة. وفضـلاً عن هذا فإن انشقاق المسيحية إلى مذاهب قبـل، وبعـد، مجمع نيقية فى أوائل القـرن الرابع الميلادى. أدى إلى احتدام الصراع بين المناطق المسيحية تبعاً لمذهبياتها فكانت المسيحية عامل تفرقه لا عامل جمع، وكان الإسلام – وحده بين كل الأديان - هو الـذي جمع ووحد هذه المنطقة وصـدق الله تعـالى ﴿لَـوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعـاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ دينـاً ولغة وتاريخـاً. وتلك يد للإسـلام على هـذه المنطقة خاصة تمـيزه عن بقية الأديـان. بحيث يكـون إطلاق كلمة دين على الإسلام ظلما وتجاهلا لخصائصه الفائقة التي لم تتح لغيره.

ولا يقل عن ذلك أهمية أن الإسـلام لم يكن فحسب الـدين الجـامع لكل سـكان المنطقة الذي صدر عنه التاريخ المشترك ونبعت منه اللغة الواحدة، ولكنه أيضاً أقـرب الديانات إلى جوهر الديانات القديمة للمنطقة، أو على الأقل أهم هذه الديانات –أعـنى الديانة المصرية القديمة- فإذا استبعدنا ظاهرة تعـدد الآلهة وتجسـيمها الـتي تعـود إلى أسباب محلية أو شكلية أو مرحلية، فإن جـوهر الديانة المصـرية هو الخلـود والحسـاب والعقاب بعد الموت.

ولم تعن ديانة من الديانات القديمة بـذلك عناية الديانة المصـرية القديمـة. ففي النقوش التي تغطى جدران المعابد، تظهر صـورة "المـيزان" الـذي تـوزن به الأعمـال والوحوش الـتي تـتربص بالمـذنب.. والنعيم الـذي ينتظر الـبريء، كما حفلت البرديـات بالاعتراف السلبي كما أطلق عليـه. ولـولا الإيمـان المتأصل بعقيـدة الخلـود لما قـامت الأهرامات والمعابد الضخمة ولما نشأ الضمير الـذي أوجد الحضـارة المصـرية**...** وهـذا الاهتمام بالبعث والثواب والعقاب هو ما تفـرد به الإسـلام بين الأديـان السـماوية بحيث نجد فيه صــورة قريبة من الصــورة القديمة بما فيها من مــيزان لا يفلت مثقــال ذرة، ونعيم للمحسنين وجحيم للغاوين.

فالإسلام هو الوريث الشرعي للديانة المصرية القديمـة، وهو الفصل الأخـير في مسـيرة الإنســان المصــري للتعــرف على الحقيقة وراء أقنعة إيــزيس وصــور الآلهة المجسمة حتى انتهي به القرار إلى الإسـلام فاسـتقربه النـوى وعـرف نفسه وضـميره فيه..

وقد يسأل سائل ولماذا خص الشرق العربي –وليس الغرب الأوربي- بـأن يكـون الدين عماده وطابعـه؟ قد يكـون الـرد عراقة الشـرق، وأن الشـرق وليس الغـرب كانا مهداً للحضارة فكان لابد أن تتهيأ له دعام الحضارة المذهبى ونظامها الاجتماعى وهـذا الدعام والنظـام هو الـدين. ولا ينفى هـذا أن يكـون للعامل الجغـرافي والبيئة الزراعية آثارها لأن الله يهيئ الأسباب ليحقق النتائج ويضع "سنة" ثابتة لا تبديل لها تجعل النتائج تقوم على المقدمات**...**

---

[11] **11. أنظر سندباد مصري تأليف الأستاذ حسين فوزي ص 266**

وقد تصور البعض إن يهوى الدين من عرشه في العصر الحـديث مع غلبة الوضع الصناعي وانتشار التعليم والثقافة وتقدم وسائل التنظيم والإدارة. وهذا وهم لأن الدين أصبح يبلور وجدان الأمة بالفعل. وهذه التغيـيرات على أهميتها وثقلها لا تزعـزع أربعين قرناً من التكوين النفسي للإنسان العـربي فضلا عن أن حاجه المجتمع الحـديث إليه لا تقل أهمية عن حاجه المجتمع القديم إليه. فقد كان الدين هو فلسـفة الوجـود والحيـاة لشعوب العالم القديم وسيظل كذلك في العصر الحـديث بعد أن عجز التقـدم المـادي عن إشباع جوعه الروحي، ولم تستطع الفلسفة "الفنية" أن تنزل من أبراجها، وما نزل منها ابتذل وأفلس...

على كل حـال فالقضـية الأساسـية الـتي نحن بصـددها هي أن الإسـلام هو أبـرز مقومات الشخصية العربية، وقد اعترف بـذلك كثـير من الكتـاب المنصـفين، وهـاهو ذا الدكتور قسـطنطين زريـق، الـذي لا يمكن أن يتهم بـالتحيز للإسـلام – يقـول في كتابه "الوعي القومي".

"وقد بلغ أثر هذا الدين كل ناحية من نواحي ثقافتنا العربية، فلسنا نستطيع أن نفهم تراثنا العربي القديم، سـواء في الفلسـفة أو العلم أو الفن إلا بعد درس عميق لنصـــوص الـــدين الإســـلامي وأحكامه وتفهم صحيح لروحه ونظامه. وهذا الـتراث العـربي قسم من ثقافتنا الحاضرة، بل هو أساسها الـذي تقـوم عليـه، وباطل ما ينادى به البعض من أن نرمى بهذا التراث القديم جانباً ونقبل على الثقافة الغربية الجديدة فالتراث العـربي جـزء منـا، شـئنا أم أبينـا، وهو فـــوق ذلك ميزتنا الـــتي ننفـــرد بها بين الأمم، وقد أوتى من الخصب والقـوة والجمـال ما يـدفعنا إلى الحـرص عليه ومفـاخرة الناس كلهم به ولهـذا وجب على كل عـربي من أي طائفة أو نحلة أن يهتم بثقافته الماضـية وبعثها الجديـد. وهـذا الاهتمـام هو **في طليعة الواجبات الـتي تفرضـها عليه قوميتـه. إن يقـدم على درس الإسلام وتفهم حقيقته ويقدس ذكرى النبي العظيم الذي أنزل الإسلام عليه**[12]"

وقد لمس الـدكتور قسـطنطين زريق لمسة خفيفة بعض صـور الشـمول في الإسلام التي جعلته أهم مقوم من مقومات الشخصية العربية وسـنحاول في الفقـرات التالية أن نفصل في سطور بعض ما أجمله في كلمات**...**

فمن الواقع المقرر أن الإسلام شـريعة كما هو عقيـدة. وان الشـريعة الإسـلامية حكمت المجتمعات العربية طوال الألف سنة الأخيرة، وكانت الشريعة الإسلامية حماية لهذه المجتمعات من التغلغل الاقتصـادي الرأسـمالي الـذي يقـوم على الربا أو التغلغل الاجتماعي المفسد ببيع الخمور وفتح دور المراهنة والقمـار والإفسـاد، كما كـان واقيـاً لهـا. من مهانة التقاضي أمـام قاضى أجنـبي. ومن هنا كـان من الأهـداف الأولى للاسـتعمار القضـاء على الشـريعة الإسـلامية، وإحلال القـانون الوضـعي، الـذي سـمح بطوفان التدخل..

والشـريعة الإسـلامية هي الشـريعة الوحيـدة الـتي يمكن أن يكـون لها دور في الوحدة العربية. وقد صور ذلك العلامة الدكتور السنهورى ".. والقـانون النهـائي الـدائم لكل من مصر والعراق، بل ولجميع البلاد العربية إنما هو القانون المدني الـذي نشـتقه من الشريعة الإسلامية بعد أن يتم تطويرهـا. وقد تكـون البلاد العربية عند ظهـور هـذا القانون قد توحدت. فيأتي القانون ليـدعم وحـدتها، وقد تكـون في طريقها إلى التوحيد فيأتي القانون عاملا من عوامل توحيدها، ويبقى على كل حال رمزاً لهذه الوحدة[13].

---

12. **الوعي القومي ص 128-129.**
13. **راجع العالم العربي مقالات وبحوث –الكتاب الثاني- بحث القانون المدني العربي ص 28-29 نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية 1953.**

والإسـلام كـذلك قيم اجتماعية طبعت المجتمعـات العربية واثـرت عليها فاستأصـلت منها عـادات الإدمـان والقمـار الـتي كـانت سـائدة فيهـا، وأوجبت النظافة والاغتسال، وجعلت القصد والاعتدال أسلوبا وغاية وقرب بين الأغنياء والفقـراء بدعوته إلى المساواة والبذل والتعاطف وإفشاء السلام واطعام الطعام وكذلك بنظامي الزكاة والأوقـاف اللـذين كانا بمثابة "مظلة التأمينـات" وقضى الإسـلام على نظم الامتيـازات والأرستقراطيات والألقاب المتوارثة والإقطاعية الذي ساد العالم القـديم وأوربا طـوال القرون الوسطى. ومع أن نظام الحجاب الذي أسئ فهمه قد أخر المـرأة وجـنى عليها وآخر البيت المصري فترة الانحلال، فـإن فكـرة الإسـلام عن الجنس حـالت دون فشو تلك المفاسد والموبقات التي تحفل بها المجتمعات الأخرى.

وكـانت الوقـائع والمعـارك الإسـلامية هي الأصل في الأدب الشـعبي ابتـداء من "فتوح الشام" حـتى بيـبرس وما بين ذلك من سـيف بن ذي يـزن والأمـيرة ذات الهمة وغير ذلك من الروايات التي كـانت أشـبه بالروايـات البوليسـية وذاعت وانتشـرت بين العامة والخاصة من اقل فلاح حـتى أخر المماليك محمد الألفي الـذي أوصى عنـدما أحس بالموت بأن يدفن في مقابر الشهداء بالبهنسـا.. ولا تـزال بقايا التقليد الإسـلامي في مقطع من الأدب الشعبي أو الغناء كأن تبدأ "الحدوتـه" بالفاتحة المعروفة "كـان يا ماكان يا سادة يا كرام ما يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام".

ومن المعروف أن ترتيل القرآن كـان هو الأصل في التلحيـن الغنـائي، فقد وضع علم القراءات أصـولا ومبـادئ عديـدة من وقف أو مد أو غن أو تطويل أو تقصـير الخ.. وظهر بجانب الترتيل القرآني وعلى هامشه الإنشاد الديني والمدائح النبويـة. وعن هـذا الإنشاد ظهرت أولى صور التلحين وتتلمذت أم كلثوم على المقـرئ/الملحن الشـيخ أبو العلا واعتـبر محمد عبد الوهـاب نفسه حسـيباً على الشـيخ الشـعراني الـذي شب في حمـاه، وألف أن يـؤذن على مئذنتـه، ولا يبـدأ لحنـاً جديـداً.. إلا بعد أن يتـبرك به ويقـرأ الفاتحة عنده.

وبفضل القرآن والحديث تفتحت آفاق المعرفة أمام عامة الشـعب وأفقر فقرائه وعميانـه. وفتح الأزهر منذ ألف عـام أبوابه للفلاحين دون امتحـان، ودون كشف طـبي، ودون مصـروفات.. بل كـان يقـدم ما نسـميه الآن "منحـا" وما كـان يطلق عليه جراية واستطاع أبناء الفلاحين أن يصبحوا شيوخاً كباراً لهم مهابة ومنزلة مرموقة اسـتمدوها من كتاب الله وحديث رسوله وجعلهم ذلك الزعماء الحقيقيين للشـعب، وبـذلك كبحـوا جمـاح السـلاطين والمماليـك، وأنزلـوا الحكـام على نص الشـرع وأبطلـوا الكثـير من مظالمهم.

والإسلام للشرق العربي هو التـاريخ الحي، وقد يصـور ذلك أن يحتفل بالقـاهرة-مركز أعظم الحضارات القديمة- باعتبارها القاهرة المعزية، وأن يكـون شـعارها مـآذن الأزهر وليس الأهـرام، رغم أن موقع القـاهرة المعزية نفسه كـان مقر العاصـمة المصـرية القديمـة، وكـان يمكن الاحتفـال بمـرور خمسة آلاف سـنة، ورغم أن التـاريخ المصري فرض نفسه على مصر الحديثة بآثاره شمالا وجنوباً، فتمثال رمسـيس ينتصب في قلب القـاهرة، والأهـرام تطـرز حواشـيها، وأبو الهـول يقـوم على حراسـتها، وأن أسلوبها في تزجيج الحواجب، وتصـفيف الشـعر، "والجيب" الضـيق يكـاد يكـون موضة الوقت... رغم كل هذا، فالحقيقة الواقعة هي أن كل ما كان قبل الإسلام من تـاريخ أو أحـداث أو قيم أصـبح في طيـات اللاشـعور التـاريخي. ويجب أن نعـرف أن مصر قد تعرضت لألف عام من التحلل، بدأت بهزيمة أبسماتيك الثـالث أمـام قمبـيز سـنة 525 قبل الميلاد التي يمكن أن يقال إنها وضعت نهاية مصر القديمة بكل أمجادها وتقاليدها، وأخذت أطياف الماضي تنـدثر وتختفي مع كل عـام يمضـي. وكـان دخـول الإسـلام هو اليقظة الأولى لمصر بعد سـباتها "الألفي" منذ 525 ق.م ومن هنا جـاز لمـؤرخ محايد جداً أن يقـول "كما لا يجـدي الإدعـاء بـأن حضـارة مصر القديمة باقية فينا إلى اليـوم، فهي غـير باقية وانتهى الأمـر"[14] أما عن الحقبة المسـيحية الـتي كـانت تمثل قطعة

---

[14] **14. سندباد مصري للأستاذ حسين فوزي ص 344.**

حمراء، في تلك الحقبة السوداء، والتي لم تعمر لأكثر من ثلاثة قرون قبل أن يفجأها الإسلام، فإن هذا المؤرخ يقول إنها "تعيش في شبه ظلام تاريخي"[(15)].

وحقق الإسلام الوحدة بين دول المنطقة ففي الفترة الإسلامية كانت مصر و"الشام" أي سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن تمثل دولة واحدة وقد تضم إليها "الحجاز" والسودان، كما جمعت بينها وبين العراق أواصر الخلافة العباسية..

وطوال الفترة الإسلامية كان المشايخ هم الذين يمثلون القيادات الشعبية، وهم الذين يقودون المقاومة الشعبية عند الخطر. وعندما هاجم السلطان سليم مصر سنة 1517 اقتيد الأمراء الجراكسه إلى الشيخ أبو السعود الجارحى الذي كان يتمتع بمنزلة روحية كبيرة فوبخهم وجعلهم يقسمون على المصحف بأن يتوبوا عن المظالم ويلتفوا حول "طومان بأى" ويخلصوا له..

وعندما تعرضت الدول العربية للاستعمار الأوربي كان الذي تحداه وتصدى لدفعه هم الشيوخ، ففي مصر برز السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وجمع الشعب تحت "البيرق النبوي" عندما انهزم المماليك أمام نابليون. ثم تزعم الثورة على الفرنسيين عندما دخلوا القاهرة وعلى محمد على عندما بدأ يتجبر. وعندما أراد نابليون أن يعلق على صدر الشيخ السادات شارة الجمهورية الفرنسية قذف بها هذا إلى الأرض في الوقت الذي كان ملوك أوربا كلها يخفضون الجباه أمام نابليون. وفي الجزائر ظهر الأمير عبد القادر، وفي المغرب ظهر الأمير عبد الكريم الخطابي، وفي ليبيا قاد سيدي أحمد الشريف السنوسى والسيد عمر المختار الجهاد ضد الإيطاليين، وفي السودان ظهر "المهدي"، وأراد أن يأسر غردون ليفدى به عرابي. وكان الذي أيقظ العالم العربي وافد مسلم من أقصى آسيا: جمال الدين الأفغاني الذي وضع في هذه البلاد بذرة الصحافة، وبذرة البرلمان، وبذرة الحزب الوطني، وتقليد العمل الثوري لمقاومة الاستعمار وبالذات بريطانيا التي شن عليها – حتى أنفاسه الأخيرة – حرباً لا هوادة فيها، ويكاد هو أن يكون الإسهام الوحيد للشرق في عالم الثوريين العالميين العظام. دع عنك المئات من الأبطال المغاوير المجاهيل في أواسط أفريقيا من مؤسسي وتلامذة الطرق الصوفية الإسلامية كالسنوسية والتيجانية الذين نشروا العلم والمعرفة في أعماق القارة وكونوا إمبراطوريات وممالك ودولا زاهرة لا يكاد يعرف العربي الحديث عنها شيئاً، ثم قاوموا الاستعمار.. واستشهدوا في هذا السبيل.

والكثير من الناس يعتبرون السلطان عبد الحميد آخر سلاطين آل عثمان ممثلا لنقائص الحكم التركي، ولكن إسلامه جعله يرفض الخضوع لإغراء باقعة الصهيونيين "هرتزل" لمنح اليهود أي امتياز في فلسطين. رغم أن هر تزل عرض عليه أموال اليهود في الوقت الذي كانت تركيا على شفا الإفلاس.

وحتى في عالم السياسة الحزبية.. نجد أن أكثر الزعماء تأثراً بالإسلام كانوا أكثرهم تضحية وأشدهم إخلاصاً وأبصرهم بالاتجاه السليم. فقد رأي مصطفى كامل أن العدو الحقيقي هو بريطانيا وأن الطريق الحقيقي هو الكفاح وليس المفاوضة.. وأن الديبلوماسية الدولية في هذه الفترة بالذات – يمكن أن تجدي. ودعا إلى تكوين الجامعة المصرية سنة 1904 قبل أن يوجه "الغمراوى" نداءه المشهور، وأسهم في تكوين سكة حديد الحجاز. ولما مات لم يجد شوقي في رثائه تشريفاً أكبر من وصفه بأنه "خادم الإسلام". وتلاه محمد فريد فكان مثالا ساطعاً للوطنية والإسلامية.. فأين هؤلاء من لطفي السيد مثلا وهو انبه السياسيين الحزبيين، بانزلاقاته كرئيس لحزب الأمة (حزب الإقطاعيين) وبما دفعه إليه إيمانه الضيق بدعوة مصر للمصريين من الدعوة لأن تكف مصر عن مساعدة طرابلس عندما هاجمتها إيطاليا سنة 1911 هجوماً غادراً وحشياً وحوصر المجاهدون وسدت في وجههم الطرق باستثناء مصر التي عمل رجالات الحزب الوطني بإخلاص لتزويد المجاهدين بالمال والعتاد والمؤن.

وقل مثل ذلك بالنسبة لمحمد حسين هيكل الذي تأثر بفكرة "الفرعونية" قبل أن ينقذه الفكر الإسلامي، وإسماعيل صدقي الذي ركز كل جهده في تشجيع

---

[15] **15. المرجع السابق ص 117.**

الرأسمالية الغربية ورفض شراء عدد كبير من الدبابات عرضها الجيش البريطــاني في نهاية الحرب العالمية الثانية (1945)ـ ولو كانت لـدى الجيش المصـري لما وقف سـنة 1948 عند أسدود. دع عنك الصغار الـذين هيمنـوا على البلاد كالنقراشى وعبد الهـادي اللـذين وأدا العمل الفـدائي ضد إسـرائيل، وكانا يأخـذان الفـدائيين والمتطـوعين من ساحة القتال إلى معسكر الاعتقال، ووجها لطمة لعزة الشعب وكرامته عندما حلا أكبر هيئة إسلامية كانت – على أخطائها الصـغيرة – أمل الشـرق والعـرب وأخـذتهما العـزة بالأثم فمضيا في طريق العسف وفتحا صفحة التعذيب المقيتـة.. ثم سـمحا بقتل زعيم الهيئة المرجى وتسترا على قتله.. وقـدما بهـذا كله لإسـرائيل والاسـتعمار خـدمات لم يكن يحلم بها.

وعنـدما اسـتطاعت فرنسا بفضل مائة عـام من الاحتلال أن تحطم المقومـات القومية للجزائــر، وأن توجد في ظل هـــذا الاحتلال الطويل جيلا يعد – بتعبــير كــاتب جزائـري – "أسـير اللغة الفرنسـية" الـتي لا يتكلم غيرهـا.. وعرضت على الجزائر أن تكون قطعة من فرنسا وأن يتمتع الجزائريـون بحقـوق وواجبـات المـواطن الفرنسـي، ولكن جمعية العلمـــاء الـــتي ظلت وحـــدها القلعة الـــتي لا تســـتطيع فرنسا أو اللغة الفرنسـية دخولهـا- أفتت بـأن ذلك يعـنى التخلي عن أحكـام الشـريعة الإسـلامية في الـزواج، والطلاق والمـيراث الخ.. وأن هـذا يعـنى الارتـداد عن الـدين الإسـلامي نفسه وبالتــالي يحــرم المتجنس من الصـلاة عليه أو الــدفن في مــدافن المسـلمين، وآثر الجزائريون إسـلامهم- وكـاد هـذا أن يكـون السـبب الوحيد الـذي حـال دون أن تـذوب الجزائر في المجتمع الفرنسي فلا عجب أن ترفع الصيحات عندما استقلت الجزائر..

يا محمد مـبروك عليك

الجـزائر رجعت إليك..

وقد أظهرت مأساة فلسطين كيف أن الوعي الإسلامي، قبل أي وعي آخر، كـان هو الذي تنبه إلى خطورة المشـكلة. ففي الـوقت الـذي كـان دهاقنة السياسة الحزبية المصـريون يضـيقون بكل محاولة لإشـراك مصر في الـنزاع الفلسـطيني/الإسـرائيلي، ويكـاد بعضـهم يجـاهر بتأييد الإسـرائيليين، وكـان موقف الاتحـاد السـوفيتي والأحـزاب الضالعة معه لا يقل تأييداً للصهيونية عن أمريكا. كانت الهيئات الإسـلامية على ضـحالة وعيها السياسي بصـفة عامة أول من تنبهت إلى خطـورة الوضـع، لأنها رأت بإيمانها ما لم يــره السياســيون بــذكائهم. فأخــذت تعمل لمقاومة التغلغل الإســرائيلي، وتجمع التبرعات لمساعدة عرب فلسطين في ثورتهم الكبرى سنة 1936.

وعنـدما بـدأت الحـرب سـنة 1948 قـادت جماعة الإخـوان المسـلمين الحركة التطوعية. وأصبح أعضاؤها من الشبان المثقف الذي تـرك الجامعـة، أو العمـال الـذين ضـحوا بأعمـالهم "ومـدة خـدمتهم" أو الفلاحين الـذين بـاع كل واحد منهم جاموسـته ليشترى بندقية، رعب اليهود والشبح الرهيب.. وقدمت الجماعة أكرم وأنبل الشـهداء.. ولو أعينت أقل إعانة في هـذا العمل البطــولى لخلصــتنا من إســرائيل! ولكن هــؤلاء الأبطـال كـانوا- كما ذكرنـا- يؤخـذون من سـاحة القتـال إلى معسـكر الاعتقـال لأن السياسة الحزبية الغبية الضــيقة المحرومة من الــوعي الإســلامي كــانت تتحكم في مصر...

وعنـدما حـدث العـدوان الثلاثي، وفـوجئت مصر في أواخر أكتـوبر سـنة 1956 بثلاث دول تهاجمها لم يجد الشـاعر ما يثـير النخـوة والكرامة وروح الاسـتقتال إلا (الله أكبر) فأصبح (الله أكبر) نشيد المعركـة. ولم يجد عبد الناصر إلا الأزهر مكانـاً يسـتطيع أن يسـمع الشـعب منـه، فهـرع إليه كما فعل عمر مكـرم والشـيوخ قبل مـائتي عـام.. ليعلن من على منبره كلمة الحرب.

وآخر ما يصور المنزلة الرفيعة للإسلام في قلوب الناس رغم المحاولات لصدهم عنه ما قرره المؤتمر الوطني العام للاتحاد الاشتراكي العربي بليبيا "يؤكد المـؤتمر أن الإسـلام هو المنبع الوحيد للقيم والحضـارات الإنسـانية وهو رسـالة سـماوية ذات زاد

فكـري لا ينضب إلى البشـرية كافة يطـرح بعمق ووضـوح نظرية شـاملة فشـلت كافة المذاهب في طرحها. وهو رسالة تحل تناقضات الشعوب وتذيب فوارقها".

وفي الملتقي الإسلامي الذي عقد في الجزائر من 24 يوليو حتى 10 أغسطس 1972 أعلن الرئيس هواري بومدين في الخطاب الافتتاحي الذي ألقاه باسـمه مولـود قاسم وزير التعليم الأهلي والشـــئون الدينية "إن الجزائر قد قــــررت بعد اســــترجاع سيادتها واستقلالها أن تسـتكملها باسـتعادة جميع مقومـات شخصـيتها وعناصر ذاتيتهـا. ولقد كان الإسلام دوماً روح مقاومتها ومصارعتها لمحاولات الابتلاع".

ولم تجد ليبيا أفضل من اسم عقبة بن نـافع لتطلقه على قاعـدة "هـويلس" كما لم تجد الجزائر أفضل من اسم "المجاهـد" لتطلقه على صـحيفتها الرسـمية، وجعلت المقاومة الفلسطينية من كلمة "فتح" علماً عليها.

محصـلة هـذا القـول أن الإسـلام ليس فحسب دينـاً يجسد وجـدان الشـعب العــربي ويبلـور عاطفته الدينية ويحـدد موقفه وفلسـفته إزاء الوجـــود، ولكنه أيضـــاً قانونه وتشــــريعه وتاريخه وأدبه وماضـــيه الحي وكفاحه السياسي على مدار ألف وثلاثمائة عام متصلة.

والعامل الوحيد الـــذي يمكن أن يســـامى الـــدين في قوته كعامل في تكـــوين الشخصية هو اللغة. فاللغة أعظم رباط يربط مجموعة من الناس ويؤلف بينهم كما أنه أقـــوى عامل يـــؤثر في تفكـــيرهم.. ولكن **اللغة العربية ليست إلا بنت الإســـلام قرآناً وحـــديثاً. فهو - كما ذكرنا في مكــان آخــر- "الــذي حلاها من عطل وشــهرها من نكــر" فالعربية قبل الإســلام هي عربية المعلقـات وسـجع الكهان، ومع أن الشعر الجـاهلي صـادق في تصـويره - إلا أنه لا يتسع إلا لمجتمع قبلي محدود.**

ثم جاء الإسلام فكان ميلاداً جديـداً للعربية وجـاء هـذا الميلاد على يـدي القـرآن والحـديث.. فأوجد القـرآن نسـقاً جديـداً إلى جـانب الشـعر والنـثر، وعـالج الألفـاظ والمعـاني معالجة خلق وإبـداع لا معالجة انسـياق وإتبـاع، فوضع القـرآن في اللغة هو وضعه في الديانة: حـاكم لا محكـوم، فما يقوله يصـبح القاعـدة والمعيـار حـتى وإن لم يكن للعرب عهد به، وقد قال اللغويون إن العرب "أماتوا، ماضي يدع ويذر لكن القرآن قال ما ودعك ربك بالتخفيف وجاء في الحديث "لينتهين قوم عن ودعهن الجمعات" أي تركهم.

ولو تعقبنا كتاباتنا العادية لوجـــدنا بصـــمات القـــرآن واضـــحة لا في الأســـاليب فحسب. ولكن أيضاً في عدد كبير من التعبيرات التي سـكها القـرآن.. وأصـبحت عملة متداولة في الكتابات اليومية. مثل...

الصراط المستقيم. قاب قوسـين. ريب المنـون. أوجس خيفـة. أقـرب من حبل الوريد. سنة الله. هبـاء منثـوراً. العـروة الـوثقى. ضـاق بهم ذرعـا. بلغ أشـده. أضـغاث أحلام. قاعاً صفصفاً. أساطير الأولين. بشق الأنفس. كبرت كلمـة. شـغفها حبـاً. خاوية على عروشها. مثقال ذرة. سواء السبيل. لا يغنى ولا يسمن من جوع. بضـاعة مزجـاة. ذات الصدور. قدم صدق، عرضاً قريباً. كلمح البصر، شفا جرف هار، البأساء والضـراء. أسرها في نفسه. أجل مسمي، المثل الأعلى. خائنة الأعين. التي هي أحسـن. تقطعت بهم الأسباب. أسوة حسنة. تضع الحرب أوزارهـا. سـكرة المنـون. طـال عليهم الأمـد. وبال أمرها. جزاءً ولا شكوراً. لؤلؤاً منثوراً، بكرة وأصيلا. سعيكم مشكوراً. قرار مكين. طرف خفي. توارت بالحجـاب. شـهاب ثـاقب. قـرة أعين. أرذل العمـر. نسـياً منسـياً. يتربص بكم الدوائر. سقط في أيديـهم. الحرث والنسل. التقي الجمعان. نضرة النعيم. يبدئ ويعيد.. الخ...

ومن التعبيرات التي سارت مسرى الأمثـال والحكم "وَلا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى. الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ. وَلَكُمْ فِي الْقِصَـاصِ حَيَـاةٌ. وَأْتُـوا الْبُيُـوتَ مِنْ أَبْوَابِهَـا. هَـلْ جَـزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ. مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ. وَلا تُلْقُوا بِأَيْـدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَـةِ. لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا. إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ. سَـلَقُوكُمْ

بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ. فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ. يَوْماً يَجْعَـلُ الْوِلْـدَانَ شِـيباً. الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ. ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَـاءً وَأَمَّا مَا يَنفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأرْضِ. كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ. حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ .. الخ...

ثم جاء الحديث النبوي فأضاف ثروة جديدة إلى ما أضافه القرآن وسمع العــرب من محمد ما لم يسمعوه من غيره من قبل، فلم يسمع أبو هريرة بكلمة السـكين قبل أن يسـمعها من النـبي وإنما كـانوا يسـمونها "المديـة" ولقد يبـدو أن تعبـير "من وراء البحار" تعبير محدث لا يجده الإنسان إلا كترجمة لتعبير بريطـاني. ولكن القـارئ يجـده في الحديث قبل أن يكون لبريطانيا شئ وراء البحار.

وهكذا كان القرآن فتحـاً بل خلقـاً جديـداً في اللغة العربيـة. أسـلوبا. ومعالجـة. وإثراء... وبلغت كتب التفسير والحـديث وقواميسـهما وشـرحهما والأحكـام المسـتقاة منهما الألوف وعشرات الألوف وقد يبلغ الكتاب الواحد ثلاثين جزءاً ضخماً.

وفي سبيل حماية القرآن من اللحن وضع النحو، ولتيسـير قراءته وضـعت النقط وعلامات الشكل، ولفهم أسـلوبه درست اللغة دراسة فنية تفصـيلية. ومن العلمـاء من جعل الغاية الوحيدة من دراسة علوم البيان هي معرفة سر الأعجاز. ويبدو هذا واضـحاً من كلام عبد القـاهر في دلائل الأعجـاز. والسـكاكى في المفتـاح وقـال ابن خلـدون "واعلم أن ثمرة هذا الفن- البيان - إنما هو فهم إعجاز القرآن".

ولما نزل القرآن بالعربية أصبحت لغة عبادة واكتسبت صفة تكاد تكون مقدسـة. وانتشرت في كل العالم الإسلامي حتى أقصى الصـين والهند وأسـبانيا ومن لم يعـرف العربية معرفة تحادث وتخـاطب أو قـراءة وكتابة عرفها بالقـدر اللازم لعبادتـه. وعكف المئات. بل الألوف من جهابذة علماء خراسان وما وراء النهر والهند وتلك الجهات التي نسميها إيران والأفغـان والاتحـاد السـوفيتي والهند على دراسة اللغة العربية وإحكامها حتى وإن لم تسعفهم ألسنتهم أو حـالت العجمة عن أن يحكمـوا النطق بهـا. فوجد من علماء اللغة من لا يستطيع أن يقول "حمار" وإنما ينطقها (همار). وكتب الـرازي. وابن سينا. والبيرونى. والقارابى وغيرهم الأمهات في العلوم والمعارف بالعربيـة، ووجد في الشـعر والحـديث من يحمل اسم ابن الـرومي وابن جـريج بل إن معظم أئمة الحـديث والتفسـير يحملـون أسـماء تنم عن أصـولهم الأجنبية مثل (البخـاري) و (الترمـذى) و(الطـبرى) و(النسـائي) و(النيسـابورى) و(السجسـتانى) و(القزويـنى) الخ... وبهـذه الطريقة كسبت اللغة العربية خدمة عبـاقرة الأجنـاس المختلفة من دول ما كـانت تأبه للغة العربية أو حتى تلم بها لو أنها ظلت لغة المعلقات أو امرئ القيس

بل إن آخر الـدعاة إلى القومية العربية على أسـاس اللغة وهو الأسـتاذ سـاطع الحصرى لم يكن يحسن النطق باللغة العربية، وكان إسلامه - حتى وإن لم يعـترف هو - في أصل الانتماء إلى هذه البلاد..

وهناك خدمة أخـرى قـدمها القـرآن للغة العربيـة، والقومية العربيـة. فمع مـرور القــرون وتــوالى الأجيــال واختلاف العوامل البيئية والمحلية في مختلف دول العــالم العربي ظهرت لهجات وعاميات تختلف اختلافـاً بينـاً بحيث لا تكـاد عامية العـراق تفهم في السـودان، ولا عامية السـودان تفهم في مصـر، ولا عامية مصر تفهم في سـوريا، وهلم جراً. وكان من الممكن أن يقضى ذلك على وحـدة اللغة بحيث لا تفهم الشـعوب العربية بعضها بعضاً لولا "بركة" القرآن ويده البيضاء على اللغة العربيـة. ذلك أنه أوجد العربية القياسية الموحدة التي تفرض نفسها فرضاً على كافة اللهجات العربيـة، بحيث أصبح كل عربي يلم بقبس منها بحكم حفظه للفاتحة و﴿قُلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَـدٌ﴾ وبقية قصـار السور.. ويأخذ فكرة كافية عنها بحكم سماعه للقرآن الـذي يتلى ليل نهـار في الـبيوت والمساجد.. وبهذا أصبح لكل عـربي إلى جـانب اللهجة العامية الخاصة بإقليمـه، عربية فصحى يشترك معه فيها كل أبناء الأقاليم والدول العربية، بل والإسـلامية لا لشـيء إلا لأنها لغة القرآن...

وقد هـوجم وجـود لغة فصحى إلى جـانب اللهجة العاميـة، وبـدأت هـذا الهجـوم القـوى الاسـتعمارية الـتي أرادت لأن تضـرب عصـفورين بحجر واحـد. فتفتت الوحـدة

العربية بأن تقضى على اللغة الفصحى التي تجمعها، وتوهن المقوم الإسلامي عندما لا يكاد الشعب يفهم لغة قرآنه. فحاولت ذلك فرنسا في الجزائر والمغرب، وحاولته بريطانيا في مصر.. وأسهم في هذه الحملة كتاب سذج وآخرون مغرضون. وفشل كل هؤلاء رغم ما كان لديهم من قوة وسلطان لأن إعزاز الشعوب العربية لإسلامها وقرأنها.. كان أقوى منهم، وكوفئت الشعوب على ذلك بأن كسبت الإسلام.. والعربية.

والواقع أن وجود لغة فصحى، أرستقراطية، فنية إلى جانب اللغة العامية كان، وسيظل نعمة كبرى، وتقسيم مفروض بحكم التخصص. فلا يمكن للغة أن تكون في آن واحد لغة مطبخ وحديث يومي، ولغة أناقة وفن موسيقى ومشاعر عميقة. وكان من بركة الإسلام أن جعل اللغة الأرستقراطية دانية القطوف لكل فرد بلا استثناء. واللغة العربية في هذا أفضل من اللاتينية التي تعد أصل اللغات الأوربية الحديثة ولا يلم بها حديثاً أو كتابة إلا الصفوة القليلة المثقفة لأنها ليست لغة دين، ولأن العلاقة المباشرة بها أنبتت منذ مئات السنين...

خلاصة هذا كله أنه إذا كانت اللغة هي لدى أنصار القومية العربية المحدثين الأساس المكين، فإن كل فضل لها يجب أن يقيد لحساب الإسلام بالذات، فاللغة العربية ربيبة الإسلام وحسيبته.. ولولاه لما كانت شيئاً ولمزقتها اللهجات إرباً إرباً...

***

لعلنا بما قدمناه آنفا قد أثبتنا أن الإسلام هو أبرز مقومات الشخصية العربية، بل هو طابعها وجابلها ودعامها. وزيادة في الإيضاح فسنثبت هذا الأمر نفسه بطريقة أخرى هي نفي كل البدائل الأخرى المحتملة...

فإذا لم يكن الإسلام هو أبرز مقومات الشخصية العربية.. فما هو هذا المقوم؟؟

هل هو اللغة.. لقد أوضحنا بما لا يدع شكا أن اللغة العربية الحديثة ولدت على يدي الإسلام وسارت ونمت في حماية القرآن، ولولا هذه الولادة الحديثة وهذه الحماية المستمرة لقضت عليها اللهجات المحلية، ولا نحط مستوى التفكير بانحطاط أداته فضلا عن تقطع الأواصر بين كل الدول العربية.

واللغة بعد أقل من الدين أثراً في طبع الشخصية..

وهناك مثالان بارزان على هذا.. ففي الجزائر قضت فرنسا على اللغة العربية، ولكنها لم تستطع أن تقضى على الإسلام، فأدى بقاء الإسلام إلى استعادة اللغة.

وفي لبنان لم تستطع الأقلية المارونية المسيحية (لأنها في الحقيقة أقلية) أن تهضم وضعها وسط العالم العربي المسلم فحنت إلى أقرب الدول المسيحية إليها- فرنسا- وآثرت اللغة الفرنسية، رغم أنها أشبه بجزيرة صغيرة وسط بحر عربي، ولكن الدين.. أدى إلى اللغة..

فاللغة أقل أثراً من الدين..

واللغة العربية بالذات وليدة الإسلام...

إذن هل يكون الجنس...

هذا لا يمكن، لأن الجنس وحده لا يمثل الصدارة. فالشخصية أعمق، وأعقد بكثير من مجرد الجنس، ومن أجل هذا قيل إن الفرق بين أفراد الجنس الواحد أكبر مما هو بين جنس وآخر، فالجنس أضال وأقل من أن يكون المقوم الذي تدور عليه الشخصية المتميزة للأمة. ولكل جنس بعد اعتزازاته وإسهامه في تاريخ العالم. وليس في الجنس العربي ما يميزه بالذات ويجعله أفضل من بقية الشعوب. فإذا ذكرنا في حسناته المطبوعة الكرم والأنفة والحمية، فيمكن أن نذكر أيضاً في عيوبه الحدة والعاطفة الفردية وما حفلت به الجاهلية من سوءات كالوأد والشرك ونظم الزواج المعيبة. والميزة الوحيدة للعرب على بقية شعوب العالم هي أنهم حملة رسالة محمد ودعاة الإسلام فالفخر والمنة بعد لله للإسلام أولا وآخراً.

فدعوى الجنس- باعتباره المقوم الأساسي للأمـة- مرفوضة عملياً وأدبياً. ومن قبل حسم سـيد العـرب ﷺ هـذه القضـية عنـدما جعل المنـاط في العربية اللغـة، وليس الجنس فقـال "**العربية اللسـان**" وجعل منـاط الأفضـلية التقـوى والعمل "لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى".

ولا يمنع هذا بالطبع من أن سكان هذه المنطقة العربية هم من جنس واحد أكثر مما يظن البعض، فالمصريون عرب لأن موجات عديدة من الهجرة العربية وفدت على البلاد قبل الفتح الإسلامي بكثير. وبحق قال شوقي:

السئم بني القوم الذين تمـــردوا   على الضربات السبع في الأبـد الخالي
رددتم إلى فرعـــون جـداً وربما   رجعتـم لعـم في القبـائل أو خـال

والعرب أيضاً- وأعنى عرب الجزيرة - مصريون.. لأن أمهم هي هاجر المصرية**...**

إذن هل يكون التاريخ...

لقد أوضـحنا أن التـاريخ القـديم- تـاريخ ما قبل الإسـلام- أصـبح ذكـرى تاريخية فحسب فصلت بينها وبين التـاريخ الحي للبلاد ألف سنة من التأخر والانحلال انـدثرت خلالها كل مآثر التاريخ القديم، وأصبحت البلاد فيها نهبـاً للرومـان والفـرس حـتى جـاء الإسـلام فكـان البداية الحقيقية للتـاريخ الحي للبلاد، أما ما قبله فقد أوى إلى ركن سحيق من أركان "لا شعور" الأمة**...** وهذا هو السبب في أننا لا نسـمع دعـوة فرعونية أو دعوة آشورية أو دعوة فينيقية، حتى ولو من باب النزوات والتقاليع..

وقد وضعنا الأمر في نصابه عندما قلنا أن التاريخ القديم كون اللا شعور المـوزع في حين أن الإسـلام كـون الشـعور المجمع والتـاريخ الحي الواحد لسـكان المنطقة جميعاً.

أكثر من هذا...

هل نجحت المحاولات المتعددة لمفكرى العالم العربي في العصر الحـديث على اختلاف ثقافاتهم وانتماءاتهم في أن توجد في المجتمع العربي نظرية غير إسلامية تملأ وجـود المجتمع العـربي أو تقنع المـواطن العـربي أو تتجـاوب مع تكوينه النفسـي؟ لم تخدم نظرية في العصر الحديث كما خدمت الشيوعية، ولم تـرزق تأييد دول وفلاسـفة كما رزقت، ومع هذا فقد فشـلت الشـيوعية عنـدما حـاولت أن تتسـلل إلى هـذه البلاد رغم تسـلحها بالمـال والمغريـات وادعـاء العلمية في أن تكسب جمهـوراً عريضـاً من صميم الشـعب حـتى في دوائر العمـال والنقابـات، واقتصر الإيمـان بها على حفنة من أنصاف المثقفين والمتمصرين واليهود وأولاد الذوات!

ومع أن حـزب البعث اسـتطاع أن يلي الحكم فـترات عديـدة، ولم تعـوزه كل الإمكانيات التي تتاح لحزب حاكم، فإن كل محاولاته لإيجـاد أيدلوجية عربية كـانت دليلا لا يـدحض على الإفلاس.. قـدر ما كـانت دليلا على أن نظرية تتجاهل الإسـلام تنفي نفسها من قلـوب النـاس وتقتصر على جمهـور المنتفعين. وقد فشل حـزب البعث في التصدي للشيوعيين وتحـويلهم إلى بعثـيين، بينما تمكن هـؤلاء بوسـائلهم المعروفة من التغلغل في حـزب البعث السـورى والعـراقي، وليس من ريب في أنهم يرسـمون الخطط لإعادة تلك الحقبة الكريهة التي ما كادوا يتنسمون فيها نسـيم السـلطة، حـتى بدءوا عهد "السحل" والقتل والإبادة..

كما لم تنجح كل المحاولات التي بذلتها على مـدار عشـرين عامـاً أو أكـثر بعض الدول العربية النامية لإيجاد "أيدلوجيـة" عربية متكاملة رغم الاجتماعـات والمـؤتمرات وتسخير الموارد والإمكانيات والعقول والطبول!!

ومن قبل سقطت كل الـدعوات الأخـرى الـتي ظهـرت في فـترات مختلفة مثل "الحزب القومي" الذي ألفه أنطون سعادة أو دعـوة "الفرعونيـة" أو الإفريقية.. الخ... بالسرعة التي ظهرت بها.

***

وهناك ظاهرة ملموسة ومؤسفة تدخل في هذا الباب، باب الإثبات بالنفي.

فقد تعرض المقوم الإسلامي في الفترات الأخيرة لحملة شعواء قامت بها قـوى عديـدة، وتسـلحت فيها بكافة الأسـلحة بما فيها وسـائل الإعلام، والسـينما، والصـحافة الخ..

وكــانت نتيجة ذلك أن وهن فعلا المقــوم الإســلامي، ولكن ذلك انســحب على "الشخصـية" الـتي مـاعت وبهتت وطغت عليها السـلبية وعـدم الاكـتراث والانتهازية والسطحية.

حـدث فـراغ وتخلخل أيـدلوجي انعكس على تصـرفات الشـباب وأثمر السـلوك السقيم الذي نشاهده سواءا كان جنوناً بكرة قـدم أو انسـياقاً وراء الموضـات الشـاذة والرقصات المجنونة والموسيقي العاوية..

ولم تنجح كل الجهـود الـتي بـذلت لملأ هـذا الفـراغ رغم ما يبـذل من محـاولات مستيئسة، على العكس لقد استغلت هـذه الجهـود لمصـلحة الاتجـاه التحللى كما تـدل على ذلك مأساة الفنون المصرية فقد أضاعت السينما على الدولة قرابة ثمانية ملايين من الجنيهات في سبيل إخراج عدد من أفلام "الغوازي" أو "الجنس" أو الجريمة تحفل بمناظر السكر والعربـدة والجريمة والـرقص، وملأ التليفزيـون سـاعات إرسـاله بإذاعة أفلام هاوية ومسلسـلات لا تفضل هـذه الأفلام، وبعثت مـرة أخـرى أغـاني "الفلكلـور" المزعوم، وأصبحت مفخـرة كل محافظة أن تكـون فرقة للفنـون الشـعبية! واسـتغلت قصـور الثقافة في "الفلكلـور" و"التمثيل" و"المزيكـة" كما ينطقونهـا! فعامية وجهالة كبـار الفنـانين بلغتهم جعلتهم ينحـدرون بفنهم الجميل من موسـيقي إلى "مزيكـة"! وأثبتت كل هـذه المأسـاة أن الإمكانيـات المادية مهما تـوفرت، ومهما كـانت جسـيمة، فإنها لا تعوض الإفلاس الأيدلوجي...

ويجب في هذه النقطة - نقطة الشخصية - أن نفـرق بين نـاحيتين: الأولى تعمق الشخصية ورسوخها والثانية سلامة هذه الشخصية...

فالرجل الذي يفهم الإسلام فهماً شـكلياً، فلا يعـنى إلا بـأن يطيل لحيتـه، ويعفي شــاربه، ويرسل عذبتــه، ويهتم بــالظواهر دون الجــواهر يجــنى ولا شك على ســلامة الاتجاه، ولكن هذا النقص لا ينفي أنه اكتسب شخصـية معينة ثابتة واضـحة لا لبس فيها ولا التواء، بصرف النظر عما إذا كانت هذه الشخصية حسنة أو سيئة

وقل مثل ذلك في "الصـعيدي" الـذي يتخلق بـأخلاق معينـة، أو يتمسك بعـادات موروثة، قد تكون سقيمة أو عقيمة، ولكن إيمانه بها يهديه إلى المسلك المحدد وينقذه من الحيرة والبلبلة، فضلا عن الضياع ويجعل له معياراً وشخصية.

في حين أن شاباً لا يتوفر له المقـوم الإسـلامي لا يلبث أن يقع فريسة للصـراع المــذهبي ما بين الشــرق والغـرب، بين الجديد والقــديم دون هداية إلا ما يســمع من دعايـات رخيصة لا تفيـده في شئ بل تزيد في بلبلته وتمـييع شخصـيته ومعـاييره في الحكم على الأشياء.

وقل مثل ذلك في المرأة المصـرية المدنية الـتي تعد نتاجـاً خالصـاً للبورجوازية المصرية المتمثلة في "حــواء" و "صـباح الخـير" والإذاعة والتليفزيـون، والـتي فقـدت جــذورها التقليدية وأصــبحت حــائرة معذبة مبلبلة الخــاطر ممزقة الأحاســيس، فقد خسرت تلك الأصالة التي كانت لجدتها الفلاحة الراسخة المطمئنة المستلهمة للإسلام، دون أن تكسب جرأة وانطلاق المرأة الأوربية التي بنت شخصيتها على مكونـات خاصة بها. إنها "أي المرأة المصـرية" تلبس "الميـنى" والثـوب القصـير انسـياقا وراء المـودة ولأنها لا تملك مناعة ضـدها، ولكنها ما أن تجلس وينحسر فسـتانها فـوق الركبة حـتى

يعروها الخجل ويثــور فيها تقليد الحشــمة المســتكن فتأخذ في جذبه وشــده، أو تضع حقيبة يــدها على الركبــتين، أو ما هو أعجب، تسـبغ "ايشــارب" كبـير كأنه فوطة على ركبتيها! وليس ما هو أكثر رمزية على وضع المرأة البورجوازية المتأرجح من مثل هــذا المشهد..

ولست أنسى ما قرأته من مده عن تلك "الأخصائية" الاجتماعية التي ذهبت إلى الريف متبرجة متبهرجة، في ثوبها القصـير إلى إحــدى القـرى لبحث حالـه، وكـان ذلك في رمضان فخرج عليها القرويون المحنقون بالفؤوس!

ولو رسخ المقـوم الإسـلامي في نفـوس الشـباب، لما وجـدت هـذه الصـور من الضـياع والتفاهة والحـيرة. ولعَمَق الشخصـية، وأكسـبها فهمــاً للحيــاة بحيث تقبل أو تــرفض.. تحب أو تكـــره على هـــدى وبصـــيرة وبمعيـــار واحد وثــابت، ولوجد الجسر المطلوب، واللغة المشتركة بين كل طبقات المجتمع.

ولا يتصور أحد أن الأخذ بالإسلام يعنى بالضرورة هذه المناهج التي يضعها الكثـير من الدعاة إلى الإسلام، فقد أصيب الإسلام على يــدي أصـدقائه، بمثل ما أصـيب على يــدي أعدائــه، وجنت عليه الإفهــام السـقيمة بقــدر ما جنت عليه القلــوب الشــريرة.. وإيضاح هذا هو ما سنثيره بطريق غير مباشر في الباب الثـاني، وما سـنعالجه بتفصـيل في القسم التطبيقي من هذا البحث الذي نرجو أن يصدر قريباً.

وفي حالات أخرى لا يتعرض المقوم الإسـلامي للهجـوم ولا تشن عليه الحملات، ولكنه يُتَجاهل أو يدغم في المقـوم الـديني بحيث تحل كلمة الـدين محل كلمة الإسـلام في الصحف أو أجهزة الإعلام حتى عندما يكون الحديث هو عن الإسلام.

إن هناك فرقاً بين أن نقول الدين، وأن نقول الإسـلام هو الفـرق ما بين التعميم والتخصيص. فاليهودية دين، والمسيحية دين، والبوذية دين. وعنــدما نقـول دين، فيمكن أن ينسحب ذلك على كل دين من هذه الأديان في حين أننا لا نريد إلا الإسـلام بالـذات، وهذا نوع من التمييع والإيهام يفسد المعنى ويحـول دون دقتـه. ولا يحق لأي اعتبـار أن يجنى على الحقيقة أو ينتقص من المعاني أو يحولها عن وجهها وغايتها.

الباب الثاني

مكونات الإسلام

عندما جعلنا عنوان الباب الأول من هذا الكتاب "لماذا الإسلام" فإنما كان ذلك للرد أولا وقبل كل شئ على بادرة العزوف عن الإسلام والضيق به والاتجاه العدائي نحوه وسوء الفهم الذي أحاط بالأسباب التي يظن معظم الناس أنها مبررات الإيمان من وراثة أو تقليد أو تعصب.

ولكن لا يقل عن ذلك أهمية الرد على السؤال "**وما هو الإسلام؟**" لأن مجموعة من الإلتباسات أحاطت بهذه النقطة أساءت إلى الإسلام وأظهرته على غير حقيقته حتى يبدا غريباً وأصبحت عملية "**استكشاف الإسلام**" هامة بقدر ما هي شاقة، هامة لأنها المدار في كل العمل، وإليها يعود الضمير عندما نقول الإسلام، ولولاها لنسبت كل إشارة في هذا الكتاب عن تمجيد الإسلام إلى صور من الفهم الشائه السقيم للإسلام، وشاقة لأن طبقات عديدة من الغشاوات الكثيفة تراكمت على الإسلام، وتقبلتها معظم المجتمعات الإسلامية بحيث أصبحت وكأنها أجزاء لا تتجزأ من الإسلام. وأصبح العمل بها دأباً وتقليداً وعادة.

وقد أريد بهذا الفصل- مكونات الإسلام- القيام بهذه المهمة عن طريق توضيح المكونات والعناصر التي يتكون منها الإسلام، والتي رأينا أنها خمسة هي العقيدة والعبادة والخلق والشريعة والتراث وشرح كل عنصر من هذه العناصر في ضوء فهمنا وما انتهي إليه اجتهادنا.

ولم يأت هذا التقسيم عبثاً، ولكن لأن لكل عنصر منها طبيعة خاصة، ومهمة خاصة، وحكماً خاصاً. فالعقيدة التي تتضمن الإيمان بالله ورسله، واليوم الآخر، تمثل الباب المؤدى للإسلام، وجوهر الإيمان به. أما العبادة فهي الوسيلة المتفق عليها لتنمية الإيمان بالعقيدة والحفاظ عليها وممارسة "الشعائر" التي يوجبها الدين تحقيقا لذلك. **أما الخلق فهو رد الفعل الاجتماعي للإيمان والعبادة، أو هو نوع من العبادة الاجتماعية يعبد الله فيها بالصدق والإخلاص والوفاء والعدل، كما يعبد بالصوم والصلاة.** والعقيدة والعبادة والخلق لها صفة الإيمان الذي يقوم على الضمير، ولا يصح إلا بالنية، ومن ثم فإنها تكون في حماية الستار الذي استأثر بعلم القلوب وحقيقة النوايا ويفترض أن لا تعتمد على تشريع أو تقوم على سلطة. وإن كانت بعض العبادات تكتسب إلى جانب صفة الإيمان الشخصي صفة اجتماعية كصلاة الجماعة أو الحج أو الزكاة التي تدخل أيضاً في باب الشريعة. والشريعة هي الجانب التشريعي والتنظيمي للإسلام "الحدود – القصاص - الربا – الزكاة – الزواج – الميراث - الأحكام السياسية الخ" التي تتفق مع نظرة الإسلامإلى المجتمع وفهمه لما يجب أن تكون عليه أوضاعه. وهي جزء لا يتجزأ من الإسلام يفترض أن تأخذ حكوماته ومجتمعاته بها، وهي في هذا تختلف عن العقيدة والعبادة والخلق لأنها "أي الشريعة" تمس أساساً الآخرين والمصالح الدنيوية، ومن ثم فهي تخضع لسلطة المجتمع خاصة عندما تأخذ طابع العلانية. وإن كان من الضروري أن نورد هنا تحفظاً هاما هو ضرورة تفهم المجتمع الحديث لها فهماً يعود إلى جوهر الإسلام وحده، وليس إلى التفريعات أو شروح الفقهاء المتأخرين، وهذا ما يؤدى بنا إلى المكون الخامس من مكونات الإسلام إلا وهو التراث. ونحن نعنى بالتراث كل ما جاء عن هذا كله خارجاً عن النص الصريح الواضح للقرآن أو الأثر المحدد الثابت للسنة. فإن الدين قد تم بوفاة النبي ويجب أن تكون هناك تفرقة جذرية تقوم على أساس تاريخي. فعهد النبوة، قرآن وسنة، نور على نور، وحي وإلهام ومنة من الله على البشرية. ونحن نقتبس من هذا النور ونلتزم بالثابت منه. أما عهد الخلفاء الراشدين، فهو امتداد لرحمة النبوة وهديها، وقبس من نورها، ومثل نادر للأمانة في الاجتهاد، ونحن نقتدي به ونضعه نصب أعيننا، ولكن دون الإلزام الديني ودون إكسابه قداسة التنزيل وعصمة الحلال والحرام

الشرعيين، فقد نشكر لعمر بن الخطاب اجتهادا ونأخذ به، وقد لا نقر الآن اجتهاداً آخر له. وما بعد الخلفاء الراشدين ملك عضوض وصراع على السلطة، باستثناء الفلتات مثل عمر بن عبد العزيز، ونور الدين الشهيد وصلاح الدين. وهذه الفترة رغم أنها فترة الاجتهاد والمذاهب والشروح. الخ.. إلا إننا لا نرى فيها كلها سوى اجتهادات تصيب وتخطأ.. وما قد يعد منها صوابا وقتها قد لا يعد صواباً الآن. ولا نريد لهذا العصر أن يكون صورة طبق الأصل لعهود مضت. أو نعيش عالة على أئمة المذاهب.. وظهور أئمة أعلام مثل الشافعي وأبى حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل وبن حزم وبن تيميه الخ. لا يعنى عدم ظهور أئمة آخرين في هذا العصر يكون لهم من الذكاء ومن الورع ومن الإحكام ما كان للسابقين. بل إن الفقيه في هذا العصر يتأتى له من عدة العلم ووسيلة البحث والتمحيص والترجيح ما لم يتأت للأئمة السابقين. فلو توفر له الورع لفاقهم وزاد عليهم. والأمر ليس أمر اجتهاد أو حرية فكرية فحسب. ولكنه كذلك تقوى وحذر من التهجم على الأحكام وإضفاء صفه الحلال والحرام على اجتهادات تخطأ وتصيب.

والتراث بعد لا يقتصر على الأحكام الشرعية ولكنه يضم كل الثقافات الإسلامية. وكل ما تركه العلماء والخلفاء والأدباء والشعراء من كتابات وتقاليد مما أثرى الإسلام ووسع آفاقه.

***

وفكرة تقسيم الإسلام إلى عناصر أو مكونات ليست من إبداعنا، فهناك أحاديث نبوية عن شعب الإيمان، وبعضها يجعلها نيفاً وستين أو وسبعين شعبة من إماطة الأذى من الطريق حتى لا إله إلا الله، التي ترمز بالطبع إلى العقيدة. كما عالج السلف قضية الإيمان، وهل يزيد وينقص، وهل العمل جزء من الإيمان أم لا. وتفرد الخوارج بأن قالوا إن العمل لا ينفصل عن الإيمان، ومن ثم فإن أي تقصير في العمل يكفر صاحبه ويجعله يستحق أشد العقوبات. وقال لفيف من التابعين إن مرتكب الكبيرة ليس كافراً، ولكنه فاسق، وجعله المعتزلة منزلة بين المنزلتين وأضفى الجدل المعتزلى سحابة من الضباب والغيم على الموضوع، وأبعده عن الأذهان، بدلا من أن يقربه إليها. ولو أن المسلمين فقهوا وفهموا الآيات القرآنية والأحاديث الثابتة وفسروا بعضها ببعض لأخذوا الفكرة السليمة، وكان ذلك أفضل بمراحل من الأساليب الكلامية التي طعمت بعناصر يونانية معقدة بعيدة كل البعد عن روح الإسلام وبساطته، فضلا عن أن هذا الأسلوب عجز رغم كل الادعاءات المنطقية عن أن يلمس حكما خفية عديدة لفاطر السموات وجابل الطبيعة البشرية ومقلب القلوب.. لا تدرك بالمنطق أو الحساب أو الكلام (وهو التعبير الإسلامي لكلمة – ديالكتك – أى الجدل الذي قامت عليه الفلسفة اليونانية، واستغلته – فيما بعد – الماركسية)..

من هذه الحكم واللطائف أن النفس الإنسانية ليست كتله صماء.. وليست قناة واحدة تجمع الإيمان والعمل معا كما تصور الخوارج، بل ليست كالأواني المستطرقة التي ما أن تسكب فيها سائلا حتى يتطرق إليها جميعاً ويلزم فيها مستوى واحداً. إن النفس الإنسانية معقدة كل التعقيد، ومع أن التكوين العضوي للإنسان معقد أيضاً، فإن التكوين العصبي أشد تعقيداً، والتكوين النفسي أكثر الجميع. وهناك دوائر عديدة متداخلة تكاد تكون كل منها مغلقة على نفسها، ولها منطقة نفوذ خاصة بها.

وهذا التركيب في النفس يماثل التركيب العضوي للمخ، فكل وظيفة أو نشاط في الجسم كالسمع أو اللمس أو الذاكرة أو المشي الخ.. لها منطقة في المخ خاصة بها، فإذا أصيبت شلت أو تعطلت الوظيفة. أو أن النفس الإنسانية كسفينة تبنى من عدد من العنابر كل منها مغلق لا يوصل إلى الآخر بحيث لو أصيب بعضها بعطب وتدفقت إليه المياه فإنها لا تنفذ إلى بقية العنابر وتغرق السفينة. وبهذه الطريقة يمكن أن تصاب السفينة بعطب جزئي، ويمتلأ عنبر أو أكثر من عنابرها بالماء، ولكنها مع ذلك تواصل رحلتها.

وهكذا النفس الإنسـانية تنقسم إلى ملكـات كل منها مسـتقلة عن الأخـرى، فقد يكون هنـاك الـذكي، ولكنه لا يكـون حتما المسـتقيم. ومن قبل تحـير عمر أمـام فجـور القـوى وعجز الأمين! وهنـاك من تفـوق ملكاته العقليـة.. ملكاته العملية فلا يسـتطيع القيام بكل ما يؤمن به.

وهناك العكس.. من يرُجى دعاؤه.. ولا تقبل شهادته!.

وهنـاك من هو مثل شـوقي- إذا تقـدم ذو تقـوى بصـالحة، قـدم بين يديه "عـبرة الندم" وقد تكون عبرة الندم أقرب إلى الله من أي صالحة أخرى..

ونستطيع أن نعد العشـرات أو المئـات من هـذه النمـاذج. فضلا عن تـأثر النفس الإنسـانية بعوامل تربوية أو بيئية مما يزيد في التعقيد والتعـدد. وما يهمنــا، هو أن الله تعالى العليم بكل هذا أفسح مجالا لكل واحد لكي يثبت إيمانه بالطريقة التي تسمح بها طبيعته وملكاته.. وهو يثـاب عليها وتعـوض زيادته في ناحية تقصـيره في ناحية أخـرى. فقد يكون حسن العبادة. سيئ الخلق، فيثـاب على حسن العبـادة. ويجـازى على سـوء الخلق، وتتوقف النتيجة الأخيرة على الزيادة أو النقص في درجات كل. وقد عبر النــبي ﷺ عن ذلك عند ما قــال "أتــدرون من المفلس قــالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال المفلس من يـأتي يـوم القيامة بصـلاة وصـوم وزكـاة، ويـأتي وقد شـتم هـذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هـذا من حسـناته، وهـذا من حسـناته، فـإن فنت حسـناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطايـاهم فطـرحت عليه، ثم طرح في النار (مسلم والترمذى وغيرهما) وهذه أشمل صور المقاصـة، وهي توضح لنا أن الإسلام ليس عنصر واحـداً، ولكنه مكونـات عديـدة، إنه حيـاه، وكل عنصر من هذه العناصر له أهميته الخاصة.

على كل حال، فإن إيضاح هذا أدخل في باب "طبيعة وميكـانزم الإسـلام" الـذي سنعالجه في القسم الثاني من هذا البحث إن شاء الله.

الفصل الرابع

الإسلام عقيدة...

الإسلام أولا وقبل كل شئ عقيدة، وهو ما ينطوى على أمرين الأول الأسلوب الاعتقادى والثاني ماهية العقيدة وبينهما ترابط الوسيلة والغاية. فلا يمكن معرفة الله ورسله وملائكته واليوم الآخر إلا عن طريق الاعتقاد، أي التصديق برسالة الأنبياء الذين يوحي إليهم، ويعلمون بذلك ما لا نعلم، وليس بمشاهدة عين أو معاينة حِسٍ أو إعمال فكر. وفي الوقت نفسه فإن هذا الأسلوب الاعتقادى لم يكن ليعد سائغاً أو مقبولا لو لم يستهدف الله الذي يعلو على الإفهام ويستعصي على الحواس والأبصار.

والأسلوب الاعتقادى بهذه الصورة من خصائص الأديان الملازمة لها. ولكنه لا يعنى انتفاء وجود أسلوب النظر العلمي والعقلي إلى جانبه إما كعامل مساعد بالنسبة للعقيدة – أو كعامل أساسي في بقية مكونات الدين غير العقيدة، ولكنه في كل حال لا يغنى عن الاعتقاد، لأن إعمال الفكر يهدى إلى الإيمان بالله، ولكنه قد يعجز عن التوصل إلى عالم الغيب، كما قد يشتط به التصور الفكري، لأن الأذهان والعقول – حتى أعظمها – غير معصومة، وتتأثر بعدد من العوامل المرحلية أو البيئية أو الذاتية التي تؤثر على موضوعية أحكامها.

فالأديان يمكن أن تتضمن أسلوبي الاعتقاد والنظر العلمي ولكن النظريات العلمية والتجارب التطبيقية لا تحتاج إلى الاعتقاد، وهي تفرقة هامة للغاية على بساطتها لأنها توضح مجالين لكل منهما أداته الخاصة في التعرف عليه والتوصل إليه.

وقد تعرض أسلوب الاعتقاد لهجوم على أساس أنه "غير علمي"، ولكن المؤمن لا يأبه لهذا النقد، ويرى أن القول بهذا هو الذي ليس علمياً. **أولاً**: لأنه ليس في جوهر العقيدة ما ينافي أو يضاد مثبتات العلم. وهذه تفرقة هامة. فالأسلوب الاعتقادى قد يعتمد على طرق غير الطرق العلمية ولكنه لا يتقبل ما يضاد أو ينافي بدائه العقل الرشيد وأصول الفكر السليم، وهذا ما يفصل الاعتقاد الإسلامي عن الاعتقاد الوثني أو أي اعتقاد "في" خرافات يرفضها العقل والنظر السليم. **وثانياً**: لأن أسلوب العلم في التعرف على الحقائق ليس هو الأسلوب الوحيد. إن التجربة الروحية، والبصيرة والإلهام والاستشفاف والوجدان كلها وسائل يمكن أن تؤدى بنا إلى حقائق. وقصارى ما يمكن أن يقال في هذا هو ما أشرنا إليه من أن النظر العلمي هو الأسلوب في العلوم والتجارب التطبيقية، وليس في مجالات الروح أو ما وراء الطبيعة. **ثالثاً** لأنه ليس من العلم من شئ أن نطلق على شئ نجهله أنه غير علمي لمجرد جهلنا به، فنحن نجهل الكثير، وكان آباؤنا يجهلون أكثر منا، ومع هذا فقد كانت هذه **المجهولات موجودة. وقد قال أحد الفقهاء المسلمين "لا أدرى نصف العلم" وهذه هي الروح العلمية وإذا كان للعلماء المحدثين ما يضيفونه فهو أن لا أدرى قد أصبحت أكثر من نصف العلم! لأن الكشوف والأبحاث الأخيرة أثبتت أن معرفة الإنسان على كثرتها ليست ألا قطرة في بحر المعرفة. وصدق الله** ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وهناك عامل آخر فرض الأسلوب الاعتقادي وأوجبه هو أن الاعتماد على النظر العقلي لا يتهيأ لكل الناس، فقد كان وسيظل أسلوب القلة في حين أن أسلوب الاعتقاد هو سبيل الكثرة وأسلوب الجماهير. والأديان مذاهب جماهيرية فأرسل الله الرسل هاديين ومعلمين ومربيين ومقدمين للجماهير فلسفة كانت تعز عليهم لولاها. ومن هنا أصبح الدين فلسفة الجماهير، كما أن الفلسفة هي دين النخبة. ويعلم الذين ينقدون هذا السبيل أن الصفة الجماهيرية للاشتراكية إنما جاءت عن طريق الاعتقاد. وليس عن طريق النظر العلمي أو المعادلات الجبرية أو المضاربات الاقتصادية التي يحفل بها "رأس المال". وهناك بعد أفضلية أخرى للاعتقاد الديني على غيره هي أن

الاعتقاد الديني لابد وأن يقوم على أسـاس أخلاقي في حين أن أي اعتقـاد قد لا يتـوفر له هذا الأساس.

وهنـاك مـبررات ودواع أخـرى للأسـلوب الاعتقـادى سـنعرض لها في مناسـبات تالية..

والعقيدة الإسلامية، وهي أكبر وأهم عنصر من عناصر مكونات الإسلام، تتضــمن الإيمان بالله. وبرسالاته. وباليوم الآخر أو عالم الغيب وسنعالج كل نقطة على حدة.

***

أ. الإيمان بالله..

الإيمان بالله هو حجر الأساس في كل دين. وواسطة العقد فيه وفكــرة الله هي الشمس الباهرة التي كشفت الأديان عنها والإضافة الثمينة التى أسـهمت بهـا. ذلك أنه عندما يظهر للناس طـرف من هـذا السر العظيم وينـير نفوسـهم المظلمة شـعاع من أشعته. تغمرهم سعادة الإيمان. وراحة الضمير واستقرار التائه ويكتسـبون قـوة كبـيرة يكبحــون بها جمــاح العواطف ويقــاومون بها مغريــات الانحــراف ويلزمــون أنفســهم الخضــوع لما تقضى به تعليمـات الـدين. ويقـوم على أسـاس هـذا الأيمـان الشخصي والالتزام العام سلام النفس ونظام المجتمع...

وقد مـرت "فكـرة" – ونقـول فكـرة – الله أو تصـور النـاس لهـا. أو حـتى إبـراز الأديـــان لها – برحلة طويلة تتلاءم مع الرحلة الطويلة الـــتي أراد الله للبشـــرية أن تقطعهـا. فلم تسـتطيع البشـرية في طفولتها أن تتصـور الله التصـور الـذي يقـرب من الحقيقـة. لأن هـذه الحقيقة كـانت أعلى من فهمها وقتئـذ، رغم تلك النفثة الإلهية في النفس البشـرية الـتي كـانت تقودها إلى اللـه، ورغم أن مظـاهر قدرته وآيـات قوتـه. وظواهر إرادته كانت تشعرها به، كانت البشرية كما وصفها، فأحسن وصفها شوقي:

رب شقت العبــاد أزمان لا كتب بها، تهتــدى ولا أنبياء
ذهبوا في الهــوى مذاهب شتى جمعتها الحقيقـــة الزهراء
فإذا لقبـــــوا قوياً آلها.. فله بالقـوى إليـــك أنتها
وإذا آثروا جميـــــلا بتنزيه فإن الجمـــــال فيك حباء
وإذا انشــأوا التماثيل غـراً فأليك الرمـوز والإيمـــاء
وإذا قـــدروا الكواكب أرباباً فالمراد الجـلالة الشـــماء
وإذا يعبــد الملوك فإن الملك فضل تحـبو به من تشـــاء
وإذا تعبد البحار مع الأسـماك والعاصفات والأنـــــواء
ونجوم السماء والإسلام والأرحام والأمهــــات والآبـــاء
لعلاك المذكرات عبيـــــد خضـع والمؤنثـات إمــاء
جمع الخـلق والفضيلة سر شف عنه الحجـاب فهو ضيـــاء

***

ونسـتطيع أن نتـابع فكـرة الله من الإله المحلي الـذي أظهرته الـديانات الوثنية عندما كانت مقصورة على بلد أو قطر أو جنس، حتى آخر صـورة له في "جيهوفـا" إله

بنى إسرائيل كما تظهره كتبهم المحرفة[16] كاله قبلي يؤثر بنعمته شعبه المختار وحده ويجعل بقية الناس تبعاً له وخولا ويسوقهم له بقضيب من حديد، حتى "الإله الإنساني" مثل إيزيس أو المسيح – كما تظهره الأناجيل المحرفة[17] هـذا الإله الإنسـاني الـذي قد يكون أباً أو أماً أو زوجة والذي يمثل صفات الحب والحنان وبقية الخصـائص الإنسـانية وتنحصر هيمنته على الإنسان، حـتى الإله الكـوني المطلق كما يظهـره الإسـلام والـذي يدين له الوجود والأكوان كلها، ولا تحيط الإنسانية إلا بطرف ضئيل من علمه وإرادته..

والمسـلمون لا يستشـعرون حساسـية من هـذا السـياق، لأن الله تعـالى وضع للبشرية نظاماً تتجلى فيه إرادته، ولأن الإسلام يفترض عجز البشرية عن الإلمـام بكنه الألوهية الحقة، وحاجتها إلى الأنبياء الذين ينقلون القبس المضـيء عن طريق الـوحي. فضـلال البشـرية وتخبطها واجتهادها لا يمس قداسه الفكـرة، بل على العكس هو ينم عن أصـالتها، وأنها لازمت البشـرية منذ طفولتها وكـبرت معهـا، كما عملت هي نفسـها على نمو البشـرية.. كما لا يستشـعر المسـلمون حساسـية من فكـرة أن الخـوف من عناصر الطبيعة أو الرجاء فيها هو الذي ساق البشرية إلى فكـرة الإلـه. لأن المسـلمين يؤمنـون بـأن كل الظـواهر الطبيعية إنما هي مجلي إرادة الله وقوته... وهـذا كله يتم طبقاً لمشيئة الله السابقة وقضائه للبشـرية أن تسـلك هـذا المنهج من الطفولة حـتى البلوغ حتى الشباب ثم الكهولة حتى يـأذن الله بـأفول هـذا الكـوكب، كما أذن بوجـوده من قبل، وليست البشرية بأفراحها وأتراحها، نزواتها وحكمتها، سـلمها وحربهـا.. فنونها وآدابها، وملايين السنين التي قضتها، إلا قطرة من بحر أو حرف من كتاب في حسـاب الله عز وجل...

وقد ضرب القرآن المثل بإبراهيم أبى الأنبيـاء في بحثه عن اللـه.. وكيف أنه لما رأى كوكبا قال هذا ربى ﴿فَلَمَّا أَفَـلَ قَـالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَـرَ بَازِغـاً قَـالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَـلَ قَـالَ لَئِنْ لَمْ يَهْـدِنِي رَبِّي لأَكُـونَنَّ مِنْ الْقَـوْمِ الضَّـالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقبل هـذه الآيـات مباشـرة من سـورة الأنعـام ﴿وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ﴾ فلا عجب إذا أثار ﴿مَلَكُوتَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الحاسة الدينية في النفـوس، ودفعها إلى التفكـير في اللـه. والجديد الـذي يضـيفه الإسـلام هنا هو أن النفس الإنسـانية وإن قادتها فطرتها السـليمة إلى الله –خـالق السموات والأرض - فإنها تعجز عن التصور الـدقيق أو الكامل للـه، ومن ثم يصـبح من الضـروري إرسـال الـوحي الـذي يضع الأمـور في نصـابها حـتى لا تضل النفـوس في التفاصيل، أو تتحكم العوامل البيئية الذاتية والمتغيرة في الفطرة السليمة، فقد يتصور الناس في القطب الجنة شمسـاً ودفئـاً، كما يتصـورها النـاس في خط الاسـتواء بـرداً وسلاماً. ومثل هذه التصورات طبيعية جداً في غيبة الرسل والوحي حتى تبلغ البشـرية بصفة عامة سن الرشد وتستطيع أن تدرك وتفهم ديناً واحداً هو آخر الأديـان وأشـملها وهو الإسلام.

وهناك سبب آخر ذكره القـرآن كثـيراً لإيضـاح أسـباب تـوالى الأديـان والرسـل، وعـدم الاكتفـاء بنـبي واحـد، ذلك هو التحريف الـذي تعرضت له الكتب المقدسـة. وهو سبب توحي به طبيعة المجتمع وعدم وجـود وسـائل التسـجيل والقـرون الطويلة الـتي مـرت قبل إثباتها كتابـة، واختلاف الـرواة. وقد أكـدت الدراسـات التاريخية هـذا كلـه. وبالنسـبة لليهودية فقد تحطمت ألواحها في عهد موسى نفسـه، ثم تـوالت الترجمـات بالمسخ والتشويه حتى أبرزت لنا أخيراً ما سمى "العهد القـديم" والنظـرة العـابرة لما حواه من خرافات وأسـاطير وتعبـيرات مشـينة وقصص جنسـية فاضـحة لا تحوجنا إلى

---

[16] **16. يؤمن المسلمون أن اليهودية إحدى الديانات السماوية، وأن موسى نبي ورسول كريم، ولكن شريعته وديانته تعرضت لتحريف خرج بها عن حقيقتها، والحديث هنا هو عن هذا التحريف.**

[17] **17. ينطبق على المسيحية ما ينطبق على اليهودية، والمقصود هنا المسيح الذي حرفت طبيعته ورسالته.**

دليل على التحريف. أما بالنسبة للمسيحية، فإن عدم كتابه الأناجيل إلا بعد فترة طويلة واختلاف ترجمتها وانحصارها بعد ذلك في أيدي الكهنة لفترة طويلة.. يؤكد كذلك التحريف. وقد قرأت أخيراً ترجمة لكتاب ألماني بعنوان "من لوثر إلى هتلر" ترجمه رمزي يسى وهذا الكتاب يبرز زعيم البروتستانتية، ورائد حرية الفكر في صورة مخالفة. فهو كاذب متعصب، انحاز إلى جانب النبلاء ضد الفلاحين خلال ثورتهم التعسة سنة 1515، وحرض النبلاء على تقتيل الفلاحين والتمثيل بهم، لا يتورع عن الكذب إذا وجد في ذلك مصلحه فقال "ماذا يضر الإنسان إذا كذب كذبا محموداً بسبب أمر ذي أهمية وفي سبيل الكنائس المسيحية" (ص77) وقال "إن التزامنا الصدق ليس ضروريا بالمرة – أنني أعد كل شئ موجه ضد فساد البابوية وغوايتها مباحا لا غبار عليه" (ص 74).

ويستطرد مؤلف الكتاب:

"ولم يكتف لوثر بذلك، بل كان على أتم استعداد في سبيل تفسير الإنجيل على النحو الذي يريد أن يمسخ ما شاء من نصوصه ويقول المؤرخ جانسيين في ذلك "إن أكبر إثم أرتكبه لوثر هو أنه لم يتورع في سبيل تعزيز مذهبه عن مسخ فقرات عديدة من الإنجيل وتزويرها.

"وقد يضيق المقام عن إثبات تلك الفقرات المتعددة التي أضاف إليها لوثر أو حذف منها أو حرف فيها لكي يوائم بينها وبين مذهبه الجديد ولا شك أنه فعل ذلك عن عمد وقصد. ولما كان قد اثبت هذا الكثير من المؤرخين الذين لا يتطرق إلى بحوثهم أي شك، فإن الإطالة هنا تعد تكراراً لا مبرر له. ويكفى أن نحيل القراء إلى جانسيين مجلد 14 ص 418 "ا هـ ص 74**"**.

فإذا كانت المنازعة ما بين لوثر والبابوية تدفعه إلى هذا في القرن السادس عشر، فالي أي مدى وصل التحريف بفعل تلك المنازعات الدموية التي مزقت العالم المسيحي من القرن الرابع حتى القرن السادس عشر.. وفي وقت كانت الأمية فاشية. ولم يكن الإنجيل مطبوعاً بحيث لم يكن هناك عقبات عمليه تحول دون التحريف..

وليس من الضروري أن يكون التحريف عملية كيدية أو تحقيقاً لأهواء خاصة أو لمكاسب يظفر بها السدنة والكهنة، وإن كان هذا بالطبع يحدث، ولكن التحريف يمكن أن يحدث لمجرد أن "طال عليهم الأمد" أو لغلبة الضلالة على الجماهير أو لميل الناس إلى القديم المألوف وتأثرها برواسب الشرك. وهو ما حدث لبنى إسرائيل عندما حنوا إلى عبادة العجل وكفروا بموسى..

وفي مثل هذه الحالات لا يقتصر التحريف على التفصيليات ولكنه يتناول جوهر العقيدة، لأن رواسب وجذور الوثنية القديمة المتغلغلة تتغلب على مبادئ الدين الجديد، فلا تلبث أن تمسخ حقيقته وتلبسه ثوباً وثنياً. وقد نشأت المسيحية في ذروة الوثنية اليونانية/الرومانية التي طفحت بها المثلوجيا اليونانية وكتابات هوميروس وغيره، وكان ابرز شخصية فيها هي شخصيه زيوس الذي كان جديراً بأن يلقب باله الخيانة الزوجية بدلا من لقب "رب الأرباب" أو كبير الإلهة، فقد كان من دأب هذا الإله أن يتقمص في مختلف الصور البشرية أو الحيوانية ليواقع نساء البشر وينجب منهن أنصاف آلهة كهرقل مثلا، كما صورت المثيلوجيا أيضاً كيف أن "افرديويت" آلهة الجمال قربت رمانة من بين ثدييها، وأصبحت حاملا، وبعد ستة أشهر وضعت طفلها من أحد جنبيها حتى لا تمس عذريتها لأن افرديويت هي الأم العذراء[18].

بل أن التاريخ اليوناني روى لنا أن الاسكندر كان نصف إله لأن "أبولو" تغشى أمه "أوليمبيا" ونقلت كل هذه الصور والأفكار الوثنية إلى العالم الروماني فأله القياصرة ومنحهم نسباً إلهيا.

وقد وقعت المسيحية الناشئة بين يدى "رسل" من اليونانيين والرومان كانت هذه الرواسب متأصلة فيهم بحيث غلب التقليد الوثني القديم، وحدث ما يشبه أن

[18] **18. النار المقدسة تأليف. ب. ز. جولد برج ص 136.**

يكـون حاله "إسـقاط" وثـنى على المسـيحية فـأولت الـولادة العـذراء للمسـيح التأويل الوثني. واعتبر الابن إلها. وعادت الوثنية القديمة نفسها، ولكن في صورة مقلوبة، فلما لم يعد الإنسان إلها، أصبح الإله إنسـانا، وليس هنـاك فـرق لأن المنـاط في الوثنية هو التجسيم للإله. سواء الإله إنساناً، أو الإنسان إلها..

ونتيجة لهذا كله قام بنـاء لاهـوتي عسـير، صـعب، معقـد، لا يفهم أو يسـاغ يضم الأب والابن والـروح القـدس. وجعل المسـيح إلها وإنسـانا، أو إلهـا، وليس إنسـانا، أو إنسـانا ينحـدر من إلـه، وصـلب هـذا الإله المسـكين ليفـدى ذنـوب البشـر، وليكفر عن الخطيئة الأصلية.

وتقبلت أوربا الحديثة هــذا التصــور الوثــني لأنها لا تــزال حــتى الآن تعيش في حضـارة اليونـان والرومـان. بل إن حضـارة الرومـان واليونـان تعيش بعد الميلاد على ضفاف ألتا يمز والسين أكثر مما عاشت قبل الميلاد على هضاب الكـابيتول أو ضـفاف التيبر.

مع هذا، ومع أن الفقه المسيحي حاول بكل قوة تفسير هـذه العملية وتسـويغها، فإنها كانت سببا في خلافات أسالت دماء البشر ما بين الشيع المسيحية المختلفة، كما أعلنت فرقة أخرى كفرها بكل هذا اللاهـوت، وأنها لا تـرى في المسـيح أكـثر من نـبي. وأبعدت فكرة **"الإله الشخصي"** كل المفكرين، وكانت السبب في عـزوف معظمهم عن المسـيحية، وأخذ الانطبـاع السـيئ عن الـدين، أما الـذين تقبلـوا المسـيحية فقد اعتـبروا كل ما جـاء في الأناجيل من عبـارات "ابن اللـه" أو "الإله المخلص" والفـداء والخطيئة على أنها عبارات مجازية، وان المسيح ليس إلا داعية عظيم أو نبيـاً. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن هذا هو إيمـان كل المفكـرين المسـيحيين الأوربـيين. وان فكـرتهم عن المسيح أقـرب إلى القـرآن مما هي إلى الإنجيـل، ولا أسـتطيع أن أحصي شـواهد ذلك فما من كتـاب عن مفكر أو مصـلح أو داعية أقـرا عنه إلا وأرى أنه مثل أينشـتين، يكفر بالإله الشخصي ويؤمن بالإله الكوني، أو مثل فلـورنس نايتنجل الـتي تـؤمن بالإله الأب وتكفر بالإله الابن.. أو مثل شـو.. الـذي قـال "إن المسـيح قد محي وبـنيت المسـيحية التاريخية على مـذبح جيهوفـاً المقـدس بالمسـيح نفسه ضـحية لهـا"[19] أو مثل فولتـير الفرنسي وتوم بين الإنجليزي اللذين كانا يؤمنـان بـالتطور الخـالق أو الإله الطـبيعي أو خرشوف الروسي الذي حُق له أن يتهكم "إننا لن نعتزم الحـرب في سـبيل جسد الإله ولن نغطي المعمورة بالتوابيت في سبيل تابوت، فإن هذا هو ما كان يحارب الصليبيون في سبيله"[20] أو مثل المفكر "جود" الذي لخص نتائج كتابه عن "الله الشر".

"إن دعوى المسيحية مقبولة ما ظلت مقصورة على تأكيد وجود الإله، وأنه يُعنى ويهتم بعالمنــا، وأنه مبـدأ الخـير واصل النظـام الأدبي في الكـون، وأنه بالتـالي أصل التجربة الأدبية، أي معرفتنا بالخير وتفضيلنا له على الشر ومقتنـاً للشر وكفاحنا ضـده، كما تقبل أيضا دعوى أننا إذا صلينا له، فيمكن أن نوجد صلة به، وأنه بفضل هذه الصلة يساعدنا ضد الشر. كما يبدو معقولا كذلك بحكم الأدلـة، أن نفـترض أنه من وقت لآخر يخلق أو يظهر أفرادا موهوبين ليقدموا تعبيراً واعيا لأغراضه وليكشفوا قانونه الذي هو القـانون الأخلاقي. وهـؤلاء الأفـراد الموهوبـون بصـفة خاصة هم المعلمـون الـدينيون والصوفيون والأنبياء.

إن دعوى المسيحية غـير مقبولة ما ظلت تؤكد أن المسـيح ابن الله أو أنه بـأي طريقة أخرى أو لأي سبب آخر إلهي وأن الله قد خلق الإنسـان ليحبـه، ولكن الإنسـان خلال ممارسته لإرادته الحرة لم يعد أهلا لهذا الحب وعـوقب بالسـقوط، وأن الإنسـان هو وحده من بين المخلوقات من يملك نفساً أو شخصية"[21]

***

---

[19] **19. مقدمة الفتاة السوداء الباحثة عن الله – ج. ب. شو.**

[20] **20. مجلة "كاثوليك دابجست" عدد فبراير سنة 1958 ص 105**

[21] **21. الله والشر تأليف ج. إ. م. جود ص 359**

أما الإسلام فإننا لا نـرى قط تفسـيراً لاهوتيـاً لفكـرة معقـدة، ولا نـرى تجسـيماً بدائياً كالذي تصوره الأولون في طفولة البشرية، ولا نرى تخصيصاً لله بجنس أو مكان أو زمان... إن الله في الإسلام يمثل التجريد التام من كل تجسيم أو تشـبيه إلى درجة يطلق معها على الله أسـماء المصـادر كالعـدل والحق والسـلام والنـور، فهو نـور السـموات والإسـلام وإليه يصـعد الكلم الطيب، والعمل الصـالح يرفعـه، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شئ لا يحيطون بشيء من علمـه، وما يكـون من نجـوى ثلاثة إلا وهو رابعهم، ولا خمسة إلا وهو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكـثر إلا وهو معهم أينما كانوا.

ويقـترب من هـذا التجريـد، ويعـززه، ويقطع الطريق على أي صـورة من صـور الشـرك أو الوثنيـة، ويحـول دون أي إثـارة من التحريـف. تأكيد وحدانية الله فلا إله إلا اللـه. ﴿قُـلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَـدٌ * اللَّهُ الصَّـمَدُ * لَمْ يَلِـدْ وَلَمْ يُولَـدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ كُفُـوًا أَحَـدٌ ﴾والآيات الـتي تفيض في هـذا المعـنى وتؤكـده وتستأصل استئصـالا" مظنـات الشـرك متعددة ومشهورة.

ولا تقتصر أهمية التوحيد على ما أشـرنا إليه من قطع الطريق على كل مظنـات الشـرك أو تلاعب التصـور الإنسـاني، إذ أن هنـاك معـنى إيجـابي رائـع، لعل أفضل من أشار إليه ووضحه مفكر مسلم هندي هو همايون كبـير الـذي رأي في إحـدى المقـالات أن "ثلاثة أفكـار لابد منها لنمو العلم أولاهـا: الاعتقـاد بـأن الكـون متجـانس، وليس منقسـماً إلى ميـادين لكل منها قـوانين خاصة تختلف عن القـوانين الـتي تسـود في الميادين الأخرى. وثانيتها الاعتقاد بأن قـوانين الطبيعة متسـقة، وليست عرضة للتغيـير أو التبديل. وثالثتها الإيمان بقيمه الوحدات كل على انفراد.

والفكرتـان الأولى والثانية بينهما صـلات واضـحة، ويمكن اعتبارهما في الواقع وجهين لحقيقة واحدة، فبغير الكـون الموحد لا يكـون قـانون كلى. ولو وجد عالمـان أو أكثر فإن هذا التعدد يكون أساسه التمييز، وتكون هذه العوالم متمـيزة بقـدر خضـوعها لقـوانين مختلفـة. لهـذا فـإن كلية القـانون تعتمد على الاطـراد والاتسـاق في الكـون. وقـوانين الطبيعة لا يمكن أن تكـون متسـقة ما لم تكن الطبيعة الـتي تعـبر عنها هـذه القوانين متسقة هي أيضاً.

والإيمان بالاتساق في الطبيعة يمكن أن يفسر على أحد هذين النحوين: إذا كـان الكـون يعتـبر ملكـاً لآلهة مختلفين أو ربما متنافسـين يتنـازعون لسـلطان، فـإن من البديهي في هذه الحالة ألا توجد قوانين متسقة تحكم الكون.

والإله الواحد معنـاه كـون واحـد، وإذن فمعنـاه أيضـاً قـانون واحـد، ولهذا كان التوحيد أحد الشروط اللازمة لظهور العلم.

كذلك يربط همايون كبير بين التوحيد الإلهي والديمقراطية فيقول:

"والواقع إن فكرة وحدة القانون لم تظهر حتى استقرت فكـرة وحـدة الكـون، فلو كان هناك آلهة مختلفـون يتنـازعون ملكية منـاطق العـالم لكـان من الواضح أنه لا يمكن تطبيق نفس القانون على جميع الناس"..

وهو يرتب على هذا أن الإيمان الراسخ بتعـدد الآلهة هو السـبب في أن المجتمع الأثينى – مبدع الديمقراطية – لم يكن ديمقراطياً حقيقيـاً، وبالمثل القـانون الرومـاني، ويضيف همايون كبير

"إذا نحن حللنا المبادئ الأساسية للإسلام ظهر لنا تشـابه كبـير بينها وبين مبـادئ العلم والديمقراطية، فإذا أضفنا إلى هذا التشـابه أن التقـدم المطـرد قد أتى مباشـرة بعد الإسلام، وجدنا مبرراً قوياً للقـول بوجـود علاقة قوية بين الأمـرين، وليس ما يميل بنا إلى هذه الفكرة في المحل الأول هو كثرة عـدد العلمـاء العـرب المتصل في تقـدم العلم منذ ظهور الأرض[22].

---

[22] **22. مقتطفات من كتاب "العلم، والديمقراطية والإسلام" تأليف همايون كبير ترجمة عثمان نويه – الإدارة العامة للثقافة – وزارة الثقافة والإرشاد القومي**

وبالطبع، فإن همايون كبير لم يحاول أكثر من أن يفسر ما أجمله القرآن في إعجازه في جمله واحدة "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون" والضمير هنا يعود – كما هو معروف – إلى السموات والإسلام.

وهناك ناحية أخرى قد لفتت – على أهميتها – الكتَّاب..

فعندما شدد الإسلام على معنى الوحدانية، فإن ذلك كان للقضاء على كل المنافذ إلى الوثنية أو الآثار الباقية لها، وفي هذا السبيل اعتبر كل تمثال وثناً وحطمه، فإذا قيل إن الناس لن تعبد الأصنام والأوثان، فليس لهذا التشديد على الوحدانية حكمة. فالرد أن ينظر الناس فيما بينهم وسيرون الأوثان تسد عليهم المنافذ وتملأ الميادين وتتصدر الهيئات العامة! وفي بعض الدول الاشتراكية توجد تماثيل للينين أو ماركس أو ستالين بأحجام تفوق أحجام تماثيل رمسيس الثاني، كما توجد في أمريكا أيضاً تماثيل لواشنجتن ولنكولن في مثل هذه الأحجام. ومجرد وجود هذه التماثيل ذات الأحجام "المهولة" الرهيبة، وما يحوطها من أساطير تنسجها ليل نهار أجهزة الدعاية توهن في شخصية الفرد وتؤدى إلى نوع من شرك الذين قالوا "إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى" أو إلى نوع من الوثنية في تلك المجتمعات التي لا تؤمن بالله! فلا جرم إذا شدد الإسلام مرات ومرات في وحدانية الله حتى يمكن صد جائحة هذه الوثنية العصرية الجديدة، وقد يكون المجتمع الحديث أحوج، من المجتمع القديم، إلى صيحة القرآن ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً.. وتخلقون إفكاً﴾.

وفي هذا التجريد والتفريد تقترب صورة الله من الصورة التي تخيلها الفلاسفة والمناطقة والرياضيين، صورة القيم المجردة، والمثل العليا من خير، أو عدل أو حق أو سلام أو القانون الواحد الأول والآخر الظاهر والباطن.

وفي مقابل هذا فإن القرآن يقرب صورة الله إلى الإفهام بتعبيرات تعطى معنى الحياة مثل ﴿ثم استوى على العرش﴾ ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ ﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم﴾ ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها..﴾ أو يلحق به صفات الجبروت الجبار – المتكبر – المتعال.. الخ... ومن الواضح بالطبع أن هذه التعبيرات إنما يراد بها مجرد التقريب وأن كلمات اليد، أو الأذن الخ.. إنما هي ليفهم الذين لا يفهمون التجريد، كما أن صفات الشدة والبأس والجبروت والانتقام لابد منها أيضاً حتى تخشع نفوس الظلمة والمتجبرين، والذين لا يفهمون إلا لغة القوة. وقد جبل الله الناس على طبائع شتى ومنهم الذين لا يفهمون إلا هذه اللغة. ويقابل صفات الجبروت والانتقام.. صفات العدالة والرحمة والرأفة وأن كل سورة قد توجت باسم الله "الرحمن الرحيم".

ومن أبرز خصائص طريقة الإسلام في الاستدلال على الله.. الربط ما بين الله.. وما بين آيات خلقه الناطقة بعظمته المسبحة بقدرته سواء كانت ظواهر كونية أو قوانين طبيعية، فالسموات التي رفعها من غير عمد.. والنجوم ببروجها ومواقعها.. والشمس والقمر والليل والنهار " لا الشمس ينبغي أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون" والأمطار التي تنزل إلى الأرض فتحييها بعد موتها ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ والأنعام والطيور، والحياة والموت، وهذه الأجيال والقرون التي توالت بعضها تلو بعض، وآثار الحضارات البائدة التي خلفوها من بئر معطلة أو قصر مشيد ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

والحق أنه ما من واحد يقرأ القرآن إلا ويفترض أن يكون المسلمون أكثر الناس حباً للطبيعة، وتذوقاً لمشاهدها، وإلماما بعلوم

الصفحات من 9 إلى 19. وقد كان همايون كبير وزيراً للثقافة والبحث العلمي في حكومة الهند.

النبات والحيوان والجيولوجيا والبيولوجيا والظواهر الجوية والفلك.. وأن يكونوا أكثر الناس ارتحالا تطبيقاً لتوجيه القرآن المتكرر والمترادف الذي يبدأ بكلمة ﴿قل سيروا في الإسلام﴾.

ويماثل توجيه القرآن في التعرف على الله عن طريق خلقه، الحديث عن قدرته الشاملة ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

وأخيراً فإن الله رمز الكمال الأسمى، ولكن هذا الكمال مطلق، أما الكمال الإنساني، كما نفهمه، فأسلوب الإسلام ليس نسبته إلى الله، الذي يعلو على المقاييس الإنسانية ولكن تقديم شخوص أحياء يمثلون أقصى ما يمكن للطبيعة الإنسانية أن تصل إليه. هم الأنبياء، كما يحفل القرآن بالتوجيهات الأخلاقية التي يريدها الله للمؤمنين.

وقد يسأل سائل عن الحكمة في هذا التصوير المعجز، الواضح، المحدد لله في الإسلام.

إن هناك أكثر من حكمة، فمن ناحية، فإن الإسلام الذي لا يمارى ولا يمالى يعلم حق العلم أن الإنسان بحكم تكوينه ليس إلها، وما ينبغي له أن يكون إلها، وواقع الحال يثبت هذا، فلن يمكن بالطبع أن يكون كل واحد إلها.. لأنه لن يجد من يتأله عليه! وتاريخ الفراعنة والملوك والأباطرة الذين ألهوا في العصور الأولى بما فيهم أفضلهم مثل تحتمس والإسكندر وقيصر والإمبراطور الرواقي المفكر ماركس أورليوس أدلة ثابتة على غلبة الضعف والخطأ والنزق والطيش، دع عنك بقية الطواغيت الذين ألهوا فأذلوا الشعوب وطغوا فيالأرض. وليس من الضروري أن يكون الإنسان إلها، لتظهر طبيعة الغشومة والظلم الكامنة فيه، إذ يكفى فحسب أن يكون حاكماً.. أو رأسمالياً بل إن الكتاب والمفكرين يكشفون عن هذه الطبيعة نفسها عندما يزدهيهم الغرور أو يتملكهم التعصب، بل إن مجرد "بسط الرزق" للناس يغريهم بالطغيان، وقد طغى الأغنياء على الفقراء.. وطغت الدول الغنية على الدول الفقيرة وبغى بريطانيا طوال القرن التاسع عشر، وعربدة أمريكا في القرن العشرين دليل على ذلك.

لا يمكن إذن للإنسان أن يكون إلها، ولابد له من إله، وبقدر ما تكون صورة هذا الإله واضحة، قوية، لا لبس فيها ولا غموض، مهيمنة على الإنسان، وبقدر ما تمثل هذه الشخصية العدل، والقدرة، والحكمة والمثل الأعلى، بقدر ما يؤمن الانحراف ويكفل الاتباع، وبقدر الغموض والتميع فيها بقدر ما يكون التحايل والتملص وبقدر ما لا يمس الإيمان بها إلا طبقة سطحية ضحلة من النفس.

وأي دين لا يعترف بالإله الأعظم لا يكون له قيمة ولا يقدر له الاستمرار أو البقاء، فضلا عن التأثير على إتباعه. وقصة الإله الإنساني أي الإله الذي يبدعه أو يخلقه الإنسان تثبت ذلك على مدار التاريخ سواء فيها الإله الوثني القديم الذي صنعه العربي من العجوة! والإله الذي أراد روبسبير أن يرمز به إلى الكمال المعنوي أو الذي حاوله السلطان الهندي جلال الدين أكبر. وقد أنتهي عدد كبير من المفكرين إلى "ضرورة" أو وجاهة وجود الله. وقد كان فولتير ذلك الهدام الكبير هو الذي قال "إذا لم يكن موجوداً لوجب أن نوجده" كما قال وليم جيمس "ينبغي لنا كفلاسفة، ومن أجل تحقيق غايتنا من إيجاد نظام أخلاقي واحد أن نفترض وجود الإله، وأن نتمنى انتصار الدين على اللادينية"[23]. وفي الاتحاد السوفيتي أيضاً وجدت مع أوائل القرن جماعة باسم "الباحثين عن الله" بذلت جهدها للتوفيق بين فكرة الله والماركسية ولكن الجماعة اختلفت وانبثقت عنها مجموعة جديدة لا تعمل للبحث عن الله.. ولكن لبناء الله!

والفرق بين الاتجاهين هو في مفهوم الله في كل اتجاه، فالباحثون عن الله ظلوا مرتبطين بالفكرة المسيحية، أما البناة فإن الله – في نظرهم – لم يوجد بعد.. ولكن جهد الإنسانية الجماعي يجب أن يبنى إلها جماعياً اشتراكياً سامياً، ووجدت هذه

---

23 **23. إرادة الاعتقاد لوليم جيمس ترجمة الدكتور محمود حب الله ص 107.**

النظرية في المفكر الاشتراكي "بوجدانوف" رفيق لينين القديم ظهيراً وفيلسوفاً، كما فتنت عدداً آخر من الشيوعيين القدماء وأيدها الكاتب مكسيم جوركي الذي كان قد آثر الاعتكاف في كابري عندما صدمه العنف الذي اتسمت به الثورة، وكان تأييد جوركي لهذه النزعة من القوة بحيث أكسبها أسم "مدرسة كابري".

وظهر أثر هذه الفكرة في رواية جوركي "الإعتراف" وانتقد لينين ذلك وكتب "إن القسم البلشفي في الحزب لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية مدرسة كابري" وعندما كتب جوركي مرة ".. وأما فيما يتعلق بالبحث الله فيجب تنحيته مؤقتاً" كتب إليه لينين "كيف! ألست ضد البحث عن الله إلا مؤقتا، إذن فقد كنت تعارض البحث عن الله لتستعيض عن ذلك ببناء الله. إن البحث عن الله لا يتميز أبداً عن بناء أو خلق أو ابتداع الله.. كما أن الشيطان الأصفر لا يتميز عن الشيطان الأزرق!!".

ولعل أفضل محاولة لإيجاد ديانة إنسانية هي ما حاوله الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت صاحب المذهب الوضعي الذي كفر بغيبيات الأديان ولاهوت الكنيسة. فوضع أسس ديانة إنسانية تقوم على المعنويات والمحبة وتستهدف التقدم ولا تدين لكنيسة أو تؤمن بإله فوق البشر. وحاول أن يطبق هذه الفكرة في بريطانيا تلميذه المخلص فردريك هاريسون الذي ظل رئيساً للجمعية الوضعية في بريطانيا طوال عشرين عاماً. وكان هاريسون شخصية بارزة في المجتمع البريطاني المثقف. وناصر كل قضايا العدالة كالحركة النقابية البريطانية. وكان أحد الذين احتجوا على ضرب الأسطول البريطاني للإسكندرية في 11 يوليو سنة 1882 وتبرع للدفاع عن عرابي.

فماذا كانت نتيجة كفاح وجهاد هذين المفكرين البارزين؟ لا شئ تقريباً. وقد وصف هكسلى محاولة كونت بأنها "الكاثوليكية مطروحاً منها المسيحية!" كما وصفت بياتريس وب، صديقة فردريك هاريسون الحميمة، والتي كانت نفسها تبحث عن عقيدة وإيمان الديانة الإنسانية بأنها "جهد باسل لإيجاد ديانة من لا شئ، ومحاولة تستحق العطف والرثاء من البشرية البائسة لتدير رأسها وتعبد ذيلها[24] " **...**

والدلالة التي تدل عليها كل هذه المحاولات هي أن هناك حاجة ملحة لإيجاد ديانة استشعرها وحاول إيجادها مفكرون حتى من المدرسة الماركسية، وإذا كان لينين قاوم ذلك بشراسة، فهذا ما يعود إلى أن الماركسية نفسها ديانة تقوم علاقات الإنتاج فيها بدور "القدر" اليوناني القديم ويقوم "الحزب" فيها بدور الكنيسة، وقد فشل كل هؤلاء المفكرين رغم إخلاصهم وإيمانهم وأصالتهم الفكرية..

وكل انصراف عن الأديان السماوية إما أن يكون تحولا نحو الوثنية، أوعبادة للطغاة من الحكام أو المنظرين.. وأما أن يكون هرباً من التفكير، وإيثاراً للأنانية، وأن يجعل الفرد من إلهه هواه. ولا يحتمل الأمر ثالثاً مع هذين.

قد يقال إن تشديد الإسلام وتأكيده لمعنى "عبودية" الإنسان يصدم مشاعر الكثيرين. ونحن نفهم هذا، ولكنه لا ينفى أن ذلك ليس إلا مرضاً من أمراض الحساسية الإنسانية، التي يجب على الإنسان أن يتخلص منها لا أن يستسلم لها. والإسلام لا ينافق، وقد كان من الضروري له أن يصارح الإنسان بهذه الحقيقة حتى لا يطغى الإنسان، والإنسان عندما يطغى يصبح مسخاً مقيتاً. بل تصبح الوحوش ملائكة بالنسبة لما يقترفه من جرائم وموبقات..

وعبودية الإنسان لله هي ثمرة خلق الله للإنسان وهي نتيجة منطقية لا خفاء فيها ولا حساسية. وإذا وضع الإنسان في تقديره عظمة الله، وأنه ليس فحسب خالقه وجابلة في أحسن تقويم، وواهبه العقل والحواس والحياة، بل هو أيضاً الخالق لهذه الأكوان التي لا حصر لها والتي لا تعد الكرة الأرضية إلا ذرة في صحراء.. ولا تعد ملايين السنين إلا ثانية من أعمار. وأنه (أي الإنسان) من ناحية أخرى يضعف أمام الجمال ويؤخذ بالعبقرية ويسترق للإحسان والمعروف. ويبذل حياته في سبيل قيم

---

[24] **24. أنظر كتاب مارجريت كول "بياتريس وب" ص 230.**

ومبادئ... فإنه سيفخر بعبوديته لله رب الأكوان.. وخالق الحياة والمــوت. وأصل المثل العليا..

وأي واحد يستشعر أنفة من ذلك يكـون كالـذي قتل شخصـاً لأنه نظر – مجـرد نظر – إلى امرأته بدعوى الشرف المزعوم فحكم عليه بالأشغال الشاقة، وفي الليمان أصبح "عشيقة" لمجرم عات!! ومن يأنف من عبودية الله يصبح عبداً لنجمة سـينمائية، أو حاكم بأمره أو داعية. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.

وبعـــد. فقد شـــاءت رحمة الله أن تجعل من الإنســـان خليفة له على الأرض، وزودته بالعلم الـذي تمـيز به على الملائكة نفسـها.. وأمر الله الملائكة أن تسـجد لـه.. فأي كرم ومنة أعظم من هذا ...

وهكذا يتضح لنا أن تصـوير الإسـلام لله أفضل بمراحل من أي تصـوير آخـر، فهو أفضل من التصـوير الفلسـفي الـذي يجعله قيمة مجـردة، لأن الإسـلام يضـيف الحيـاة والقـدرة والإرادة إلى هـذه القيم. وهو أفضل من صـور التجسـيم الوثـني الـتي تقضي على التجريد الواجب. وهو أفضل مما صورته الكتب المحرفة لبـني إسـرائيل أو البنـاء اللاهوتي المعقد الذي جاءت به المسيحية..

ب - الإيمان بالرسالات السماوية..

وتتضمن العقيدة الإسلامية الإيمان بالرسـالات السـماوية والرسل الـذين حملـوا هذه الرسالات وأن الإسلام هو آخر الرسالات السـماوية ونـبي الإسـلام وخـاتم الرسل والأنبياء..

وهذا الاعتقاد هو ما توجبه الآيـات ﴿قُولُـوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنـزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنـزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَقَ وَيَعْقُـوبَ وَالأَسْـبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَـى وَعِيسَـى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَـهُ مُسْـلِمُونَ﴾ البقـرة 136، وهي الآية التي كررت بألفاظها تقريباً أو بمعانيها في عدد كبير من السور.

وهنـاك آيـات لا يقتصر التوجيه فيها على الإيمـان بهـؤلاء الرسـل، والرسـالات بالذات، ولكنها تشير إلى رسل آخـرين لم يذكروا على وجه التعيين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُـصْ عَلَيْـكَ﴾. ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وهناك آيات أخرى تنص على أن الله سبحانه وتعالى لا يسـائل حـتى يرسل رسـولا مثل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾.

ومحصلة هذا أننا لا نعلم على وجه القطع عدد وشخصية الرسـل، وإن كنا نسـلم بالنص القرآني أن كل أمة كان لها رسولها الذي يدعوها، بلغتها، إلى عبادة الله.

ويدخل بـالطبع في الإيمـان بالرسـالات الإيمـان بـأن الإسـلام هو آخر الرسـالات السـماوية.. وأن نبيه هو خـاتم الأنبيـاء، فلا رسـالة ولا أنبيـاء بعد الإسـلام، وهو ما تنص عليه الآية ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُـولَ اللَّهِ وَخَـاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ومع أن النص هنا منصب على أن الرسول هو خاتم النبـيين، فـإن هـذا ينسـحب على الرسـالة أيضـاً، إذ لا رسـالة دون رسـول، وقد أثبت الواقع صـدق ذلـك، فلم تظهر بعد الإسـلام رسالة ولم يقم بعد محمد ﷺ نبي.

والإسلام يجعل للأنبياء مهمة مزدوجة، وينظر إليهم كنـوع من أجهـزة الاسـتقبال والإرسال الآدمية. فهم يتلقـون الـوحي السـماوي وهم يـذيعون الرسـالة الـتي يتلقونها دون زيادة أو نقصان وإن كان لهم حق التفسير والإيضاح في حدود ترسم لهم.

ونحن لا نعـرف حـتى الآن، ولن نعـرف، حقيقة الـوحي الإلهي فاللفظة نفسـها "توحي" بالخفاء وتشير إلى الإيماء النفسي وبغير واسطة مرئية. وقد استخدم القـرآن اللفظة في مدلولات متعددة مثل ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾. ﴿فَقَضَـاهُنَّ سَـبْعَ سَـمَاوَاتٍ فِي يَـوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُـلِّ سَـمَاءٍ أَمْرَهَا﴾. ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَـدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾. ﴿إِذْ

أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾. وكذلك جاءت آيات أخرى مثل ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ .﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ﴾.

وهنـاك أحـاديث عديـدة تصف الحالة البدنية والنفسـية للنـبي عنـدما كـان يأتيه الوحي. وهناك أحاديث أخرى تنص على أن جبريل كان يتقمص شخصية "دحيه الكلبي" وكأنما أريد بمثل هذه الأحاديث أن تدحض شبهة عدم إعجـاز أو قدسـية أو صـفة تنزيل الوحي المحمدي.

والإيمان بالوحي جزء من الإيمان بذلك العالم المجهول للـدنيا الـذي يطلق عليه القـرآن عـالم الغيب، ولا تفضل معرفتنا به معرفة أحد أجـدادنا الغـابرين بـالراديو أو اللاسلكي.

وأسلوب القرآن في الإشارة إلى الأنبياء هو ذكر صفاتهم أكثر من أسـمائهم. فلا يذكر القرآن أسم النبى إلا عنـدما يتطلب السـياق التميـيز بينهم، أو أن يكـون الحـديث متعلقاً بأمر خاص برسول بعينه، أما في غير ذلك فالإشارة دائماً بصـفة (رسـول اللـه-رسله -أنبيائه) ولم يذكر سـيدنا محمد باسـمه في القـرآن إلا خمس مـرات على تعـدد الإشـارات إليـه، **كما تلازم دائما أدوات الحصر صـفة النـبي فتحصـرها في تبليغ الرسالة "إن أنت إلا نذير".**

وهذه الإشـارات كلها تـدل دلالة قاطعة على الصـفة الموضـوعية للرسـول، وأنه ليس البطل صانع التاريخ، ولكنه الموصل للإرادة الإلهيـة، وليس له دور إلا التبليـغ، وما يلحق بهـذا التبليغ من إيضـاح أو تفسـير. وهـذه الصـفة بـدورها لم تـأت بسـبب ربانية الرسالة فحسب، ولكن أيضاً لأن الوسيلة هي (الـوحى) فالأنبيـاء لا يبـدعون رسـالتهم، ولا يضـعونها من تلقـاء أنفسـهم أو طبقـاً لفلسـفتهم، بل ولا يعلمونها قبل أن تـوحى إليهم. ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تـدرى ما الكتـاب ولا الإيمـان، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾..

ومن الواضح أن هذا يقدم تفسيراً لمهمة (البطل)، فليس هو الذي يبدع التاريخ، كما يــذهب إلى ذلك أصــحاب مدرسة البطولة والفــرد، وليس هو الــذي يســتبطن العلاقـــات الإنتاجية كما تـــذهب إلى ذلك الماركســـية. والقـــرآن ينص على أن الله (يصطفى) أفراداً ليبلغون رسالته. وهؤلاء الأفراد،وهم الأنبيـاء، يكـون دورهم التـاريخى هو التبليغ بكل ما في هذه المهمة من أمانة، ودقة، وإيضـاح أو تفسـير وما يتطلبه ذلك من عمل وذكاء وتضحية. وهذا هو دور النبي، أما محـور التـاريخ فهو مشـيئة اللـه. وهو التعبير الإسلامي للتطور طبقاً للسـنن الـتى وضـعها اللـه، والـتى تضع في اعتبارها كل العوامل المؤثرة.

ويفترض الإسلام في الأنبيـاء أن يكونـوا مثلا عليا حية يُهتـدى بأخلاقها وسـلوكها، وهو ما يتسق مع بقية جوانب (النبى) لأنه لما كـان الله يصـطفيه ويكل إليه مهمة تبليغ رسالاته، فلابد وأن يكون أكمل الناس.

والنظرة العابرة في هذه المهمة المزدوجة توضح جليـاً الفـرق الأساسي ما بين النبى والبطل، فالأنبياء أفراد اختارهم الله عز وجل من صـفوة الخلق ليحملـوا رسـالة مقدسة إلى البشـــرية وأضـــفى عليهم عصـــمته في تبليغهم الرســـالة، في حين يحمل الأبطـــال أوزار الأوضـــاع والوراثة والبيئـــة، ومن هنا فقد تكـــون مـــذاهبهم واتجاهـــاتهم سليمة، ولكن سلوكهم وتصرفاتهم تعكس الضعف البشرى..

وعندما نطلب إلى الناس الإيمان بأن محمداً رسول مـوحى إليه من الله، فنحن نطلب إليهم أهون اختيارين وأكثرهما سلامة.

ذلك أننا إذا وضعنا مآثر أكبر الزعماء والقادة الذين أنجبتهم البشرية، أمـام مـآثر محمد.. لبدت الأولى ضئيلة، قميئة معيبة أمام الثانية..

فقد كان محمد نبياً جـاء بـدين نـاجح وسياسـياً بـنى دولة ورثت الإمبراطوريـات القديمة، ومشـرعاً وضع قانونـاً عبقريـاً يشـمل العقوبة الجنائية والعلاقـات الشخصـية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وبليغاً جـاء بجوامع الكلم واعتـبرت أحاديثه حجة في

اللغة. وقائداً عسكرياً مظفراً. ومثلا أعلى في الخلق الكريم، ونتيجة لهذا فإن اسمه لا يزال منذ ألف وأربعمائة عام حـتى الآن يـتردد خمس مـرات كل يـوم في أربعة أركـان العالم كلما أذن لصلاة. ولا يـزال مثـواه الأخـير علمـاً منـوراً يهـرع إليه المؤمنـون من أقطار الإسلام يحدوهم الشوق لكى يقفوا بين يديه في تلك البقعة الـتى قـال عنها إنها "روضة من رياض الجنة ".

من ذا يسامى هذه المآثر، أو يظفر بمثل هذه المنزلة..

لقد كـان الاسـكندر فاتحـاً عسـكرياً مظفـراً، وتتلمذ على يد "أعجوبة البشـرية" أرسـطو، ولكنه لم يكن المشـرع ولم يكن النـبى، وما أكـثر ما غلبته انفعالاته وورطته في منكرات وآثام.

وكان "أعجوبة البشرية" ارسطو فريداً في الفلسفة والمنطق والآداب والعلـوم، ولكنه لم يكن رجل الدولة ولا رجل الدين.. ولا القائد العسكرى.

وكان قيصر رجل دولة، ورجل سياسة وآداب وقائداً منتصـراً ولكنه لم يكن رجل الدين أو المشرع وفوق هذا فقد كان رجل كل امرأة.. وامرأة كل رجل..

وكان نابليون رجل دولة، ورجل سياسة وقائداً عسكرياً، ومشـرعاً ولكنه لم يكن صاحب الدين أو رجل اللغة والأدب أو المثل الأعلى في الأخلاق.

وكـان كل من "شكسـبير" و"جوتـه" علمـاً من أعلام الأدب والشـعر والمسـرح ولكنهما كانا أصفاراً في السياسة والتشريع والقيادة العسكرية أو الرسالة الدينية.

إن الشخصية الباهرة غير العادية للرسول العـربي قد فرضت نفسـها من الوهلة الأولى مع تلك الجملة التي ما كانت تشبيهات شكسـبير وتهاويله لتصل إلى ما هو أبعد منها ".. لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يسـاري على أن أتـرك هـذا الأمر ما تركته..".

فهل كان يمكن للإسكندر، أرقى ثمرة للثقافة الهيلينية وتلميذ أرسـطو أن يقـول شيء كهذا..

أي قائـد، أو ملك أو إمـبراطور أو نـبي في العـالم يسـتطيع أن يقـول كما قـال محمد عن أصحابه: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم.. اهتديتم"..

وأصحاب أي قائد ظفروا من الأجيال بتوقير وتبجيل كما ظفر الصحابة؟ إن مجد محمد الذي أنعكس عليهم امتد إلى أصحابهم فقيل لهم "التابعون" وإلى أصحاب هؤلاء فقيل "تابعو التابعين"..

أي جنـود معركة نـالوا مثل "الوسـام" الـذي منحه محمد لجند بـدر ".. إنه شـهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم"..

أي بشر يصل به الاعـتزاز وتملك قيـاد البلاغة وقـوة التصـوير إلى أن يقـول لأصحابه "لو كتم في أهلكم كما تكونون معي لصافحتكم الملائكة!! "

وكل هـذا...

يصدر من عربي أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم على يد فيلسوف..

فإذا لم يكن هذا وحياً، وإذا لم يكن محمد نبياً، فإن البديل الوحيد هو أن يكون محمد – كما كان يري اليونان والرومان – إلها، أو نصف إله.

وقد قرأنا فقرة تنفح صدقاً وإخلاصاً أملاها إيمان كاتب مسلم هندي هو السيد أبي الحسن علي النـدوى وجعل لها عنوانـاً، محمد رسـول الله **روح العالم العـربي** قال فيها:

".. إن سيدنا رسول الله هو الذي أبرز العـالم العـربي للوجـود، فقد كـان هـذا العالم وحدات مفككة.

كانت سوريا مستعمرة رومية، والعراق مطية لشهوات الدولة الكيانية، وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقة حلوباً ركوباً.

فما لبث هذا العالم المفكك المنحل المضطهد إن هبت عليه نفحة من نفحات الإسلام الذي جاء به محمد فأحياه بإذن الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس وعلمه الكتاب والحكمة وزكاه فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الإسلام. ورسول الأمن والسلام ورائد العلم والحكمة، ومشعل الثقافة والحضارة، هنالك كانت الشام وكان العراق وكانت مصر وكان العالم العربي الذي نتحدث عنه، فلولا محمد ولولا رسالته، ولولا ملته، لما كانت سوريا. ولما كان العراق. ولا كانت مصر. ولا كان العالم العربي. فمن استغنى عن دين الإسلام من شعوب العالم العربي وحكوماته، وولى وجهه شطر الغرب أو أيام العرب الأولى أو استلهم قوانين حياته أو سياسته من شرائع الغرب ودساتيره أو أسس حياته على العنصرية أو العروبة التي لا شأن لها بالإسلام فليرد على محمد بن عبد الله نعمته، ويرجع إلى جاهليته الأولى. حيث الحكم الروماني والإيراني.. وحيث الاستعباد والاستبداد.. فإن هذا التاريخ المجيد. وهذه الحضارة الزاهية.. وهذه الدول العربية ليست إلا حسنه من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام.[25]

ج – الإيمان باليوم الآخر..

والعقيدة الإسلامية تتضمن كذلك الإيمان باليوم الآخر.

واليوم الآخر هنا رمز لفصيلة من الحقائق يطلق عليها في الإسلام السمعيات أو "عالم الغيب" وتضم فيما تضمه الوحي وكما ذكرنا. فإن الإيمان بالله والوحي يمكن أن يدخل في باب الإيمان بالغيب، وما دمنا قد سلمنا بأسلوب الاعتقاد إلى جانب أسلوب الحواس أو النظر العقلي فإن الإيمان باليوم الآخر لا يعد شذوذاً، وإن كان الإيمان به قد يكون أقسى وأصعب من الإيمان بالله

ذلك لأن اليوم الآخر يتضمن الحياة بعد الموت والنشور من القبور.. وهو أمر يصعب على الذي يحكم حواسه أو النظر العقلي المزعوم التسليم به.

وحجة القرآن في إثبات البعث هو أن الله هو الذي أنشأ النشأة الأولى. وأنه من ثم قادر على أن يحيى الموتى، ويبعث العظام وهى رميم..

استدلال منطقي تماماً، ولكن المنطق هنا لا يجدي، ما لم يكن إلى جانبه الإيمان..

وقد يُهَوّن من الاستحالة الظاهرة لعملية البعث عدة أمور:

فأولاً: نحن لا نعلم إلا القليل من أسرار الحياة والموت والبعث والنشور. ولو قال أحد لأجدادنا الغابرين إنه سيمكن رؤية صورة أحد الموتى يتحدث، ويعمل فيرى أداءه ويسمع صوته بعد موته بسنوات عديدة بل يمكن الاحتفاظ بهذه الرؤيا والسماع دائماً لنعتوه بالجنون. ومع هذا فنحن نستطيع أن نحتفظ بشريط سينمائي لإحدى الشخصيات فنسمع صوته ونراه يقوم بحركاته وأعماله بعد وفاته بوقت طويل، وفي الوقت نفسه فنحن لا نعلم على وجه الدقة البعث والنشور وكيفيته، وما في القرآن من إشارات متعددة هي إشارات عامة تعني وتركز على صلب الموضوع وجوهره وليس على كيفيته أو تفاصيله. فهناك بعث بعد الموت وحساب دقيق ومكافأة للمحسن وعقاب للمسيء أما تفاصيل ذلك فلم يتناولها القرآن جرياً على أسلوبه في إهمال التفاصيل والتركيز على الجوهر وقد تناولت أحاديث عديدة تفاصيل البعث والنشور، ولكن من المعروف أن هذا الموضوع هو المجال المحبب والمختار للوضاعين الآثمين، وللقصاصين الغافلين.

وثانياً: أن الفكرة في اليوم الآخر هي إحقاق الحق، فقد تسمح الأوضاع بظهور الطغاة والظلمة والفسقة الذين يرتكبون المظالم وينتهكون المحارم ويعذبون الناس ثم يموتون في أوج سلطانهم دون أن تنالهم يد العدالة أو يدفعوا ثمن شرورهم، وقد

[25] 25. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 279 – 280 بتصرف

يضطر ضحاياهم، إن جهلاً وإن قهراً، لتشييعهم في مواكب مهيبة ودفنهم في مقابر وهياكل يقف الحرس عليها ليل نهار.. فإذا جاز أن يمضي هذا لهدم كل معنى من معاني سيادة الحق. فاليوم الآخر هو ميعاد هؤلاء مع العدالة الإلهية فسيادة الحق والعدالة تفرض إيجاد هذا اليوم كجزء لا يتجزأ من معنى، ومبنى الحق والعدالة، وانعدامه يفترض ضمناً تهدم هذا المعنى والمبنى أو انعدام وجودهما.

وثالثاً: إن عقيدة اليوم الآخر جزء حيوي وثمين من الأصل الذي أوجد الضمير. فإيمان الناس بالله، وبأنه يكافئ المحسن ويعاقب المسيء في يوم لا يعلو فيه قوة السلاح و"القنبلة الذرية" و لا يهيمن رأس المال والمعونات، ولا تملك وسائل الإعلام المضللة أن تمارس تزييفها... يولد الضمير.

وبوجود الضمير الإسلامي يوجد الالتزام الاجتماعي وتسيير أمور المجتمع سيراً هيناً ويسوده الفهم، والتعاون، والعدل، والمعايير الموضوعية التي يحترمها الجميع.

ويلحظ هنا أن الإيمان باليوم الآخر يقوم بمهمة وقائية وجزائية في آن واحد ويؤدي عمله في الحاضر الماثل والمستقبل الآتي، فالإيمان به يقي المجتمع من أن ينساق أفراده في تيار الانحراف ويعصمهم من الزلل ثم يوجب توقيع الجزاء على المسيء.. في ذلك اليوم المشهود.. الذي يدفع فيه ثمن ما قدمت يداه...

***

ويلحق باليوم الآخر. والحساب والعقاب.. الجنة والنار... ولا ريب في الجنة والنار، إذ هما أداتي الثواب والعقاب، وإليهما ينتهي المطاف والمآل..

وتثير الجنة والنار في أذهان بعض المسلمين العصريين قضيتين **الأولى** هل التعبيرات التي جاءت عن الجنة والنار في القرآن تعبيرات حرفية أو أنها مجازية؟ في نظرنا أن الأمر أساساً أمر فهم أمين، وقلب سليم وإخلاص في الاستدلال. فمن اطمئن صدره إلى أن هذه التعبيرات مجازية، شأنها في ذلك شأن تعبيرات "يد الله" و "العرش" وما إلى ذلك فله هذا المخرج والتأويل ما اطمئن قلبه إليه. ومن لم يطمئن إلى هذا فعليه أن يتمسك بما فهم من منطوق الآيات.

والقضية الثانية هي عدالة الجنة والنار، وبالذات العقاب بالنار. وفي هذا الصدد نعرض حقيقتين لا جدال فيهما: **الأولى** أن الله كتب على نفسه الرحمة، وأنه هو الرحمن الرحيم، وأن الأديان إنما تنزلت والرسل إنما بعثوا رحمة بالناس**، وأن** رحمة الأم بطفلها جزء ضئيل (1%) من رحمة الله، وأن خزانة رحمة الله لا تنفد وليس للذين أسرفوا على أنفسهم أن يقنطوا من رحمة الله. فلا احتمال بعد هذا لما نتصوره ظلما.. تعالى الله عن ذلك.

والثاني أن إيمان المجتمع الإسلامي بعقوبة النار في الآخرة جعلها محرمة في الدنيا، فلم تعرف هذه العقوبة بين العقوبات لآي سبب كان. فوجوها في الآخرة كان رحمة في الدنيا. ونقيض هذا أن الكنيسة المسيحية لما كانت "تمقت الدماء" ecclisia abhorreta sangune فإن العقوبة المقررة أصبحت هي الحريق وسيق المخالفونإلى المحرقة زمراً فيما سمي "مواكب الإيمان!". auto da fe [26]

وهذه "المعلومة" الجديدة التي تكشف عن رحمة كبري تمخضت من عذاب غليظ ليست إلا مثالا واحداً لعشرات أو مئات "المفارقات" التي توضح خطأ الاستعلاء العلمي المزعوم، أو الأخذ بالظنة والبادرة الأولي، أو ما يبدو وكأنه منطقي معقول.

***

وتحتل العقيدة منزلة الشرف بين مكونات الإسلام.. لأن الإيمان بالله تعالى: المثل الأعلى والحقيقة الكلية.. وخالق الحياة والموت ومالك الملك، ونور السموات والأرض يكسب الفرد المؤمن قوة عظمي، واعتزازاً لا يماثله أي اعتزاز آخر، و بهذه القوة تنمو شخصية الفرد المسلم وتصمد أمام كل المصاعب. والمحن والأعباء.

---

26 **26. وقد استمرت هذه "المواكب" فى أسبانيا من سنة 1481 حتى سنة 1813.**

بل إن مجرد فكـرة الله بالصـورة الإسـلامية. أي باعتبـاره مالك الملـك.. ورازق الخلق مكن العلماء من أن يجابهوا الملوك.. وجعل العامل الفقير الجاهل يصيح عنـدما يـرفض الدنية "رزقي على اللـه!" ولو كـان رزقه بيد الدولة الشـمولية.. أو الإقطـاعي المستحكم أو الرأسمالي المستغل لما استطاع إلا الرضوخ والاستسلام.

والعقيدة بطبيعتها فردية، والوسيلة الوحيدة إليها هي الدعوة. ومن أجل هذا كان الأنبياء دعاة يـدعون بالحكمة والموعظة الحسـنة، ولا يمكن تصـور وسـيلة أخـري غـير ذلـك، كـأمر عسـكري.. أو قـانون أو إرهـاب أو اصـطناع.. فـان هـذا يوجد المنتفع أو الانتهازي أو الوصولي ولكنه لا يوجد المؤمن.

وشأن العقيدة في هـذا العبـادة والخلـق، فكلها تنمو من الفـرد.. لا تفـرض على الفـرد. والأمر هنا يختلف عن "الشـريعة" الـتي تكـون نقطة الانطلاق منها "المجتمـع" ويجوز لها أن تلوذ بوازع السلطان وبالقوة الجبرية.

الفصل الخامس

والإسلام عبادة ...

والإسلام كذلك عبادة..

والعبادة هي أولى ثمار العقيدة وأكثرها مباشرة، ولهـذا أصـبحت وسـيلة الحاسة الدينية لممارسة وظيفتها ووجودها وطريقة الإنســان للتقـــرب إلى اللـــه، ومناجاته وتهذيب ضميره من النوازع الجامحة..

وليس المجـال مجـال دراسة موضـوعية للعبـادة، فهـذا ما يتطلب كتابـاً خاصـاً، ولكن لابد من الإشارة إلى بعض القضايا الأساسية التي تلتبس بالعبادة عامة، والعبـادة الإسلامية خاصة مثل قضية الإلزام والشكلية في العبادة وقضية القيمة التهذيبية لها

فمع أنه يفترض أن تنبع العبادة أصلاً من نفس الفرد كثمرة للعقيدة وتعبـير عنها أو تجسيم لها، إلا أن الأديان جميعاً لم تترك العبادة للفرد تماماً.

فقد تدخلت عوامل عديدة اقتضت أن تحدد الأديان صور وطرق العبادة. حـتى لا يضل البعض، أو يلوذ بصور سقيمة، أو يستسلم للسلبية. ولأن الأديان عقائد جماهيرية، كما هي إيمان فردي. وهذه الحقيقة تستلزم نوعاً من الوحدة، ومن الإلـزام أيضـاً، لأن تجربة البشرية أوضحت أن الناس أكسل من أن يلزموا أنفسهم القيام أو بمعنى أدق – المداومة على القيام – بأمور هي في صميم مصـلحتهم، رغم علمهم بها ما لم تفـرض عليهم هذه الأمور، أما إذا تركت للاختيار الفردي. فإنها لا تمـارس، أو تنتظم ممارسـتها أو قد يغلب عليها أمور أخـرى أكـثر إغـراء وأقل مصـلحة. فكل النـاس مثلا تعلم أهمية غسل الأسـنان قبل النـوم الخ.. أو القيـام بتمرينـات رياضـية معـدودة كل صـباح.. أو الامتناع عن السرف في الطعام أو التدخين الخ.. ومع هذا فما لم تفـرض هـذه بإحـدى طرق الإلزام، فإن عدداً محدوداً فحسب هو الذي يلتزم بها.

فلم تكن العبادات – كممارسـات جماهيرية – لتظهر أو ليكفل لها الاسـتمرار **إلا باختيار أفضل الصور المؤدية لها وفرضها.** وهذه الضرورة الناشـئة عن قصـور الجماهير والجماعات وغلبة قانون الجهد الأقل عليها آونة والنوازغ المغرية آونة أخري، يجب أن تكون ماثلة في أذهاننا عندما يطرأ لنا دائما هذا السؤال "لماذا لاتترك العبـادة للأفـراد، وإحساسـهم ومشـاعرهم حـتى لو أدي هـذا لأن يعبد كل واحد الله بطريقته الخاصـة". فلم يكن هنـاك بـديل، وكـان حتما على الأديـان أن تجابه التحـدي في هـذه القضية، وتحدد موقفها من تلك المشكلة التي يثيرها الاختلاف ما بين الفرد والجماعـة، الشكل والمضـمون، الإلـزام والتطـوع وأن تعين الأوضـاع المحـددة، والملزمة دون أن يستغرق ذلك مبادءة الفرد، أو جوهر الشـعور وإنما هو ينظمها ويبلورهـا. ولو لم تعمل الأديـان ذلك لفقـدت صـفتها الجماهيريـة، ولأصـبح مكانها ما بين الفلسـفة والهوايـة، ولانحصرت في مجموعة ضئيلة جداً، إذا استطاعت مقاومة عوامل الفناء.

ومع أننا على إسـتعداد للتسـليم بـأن الشـكلية والإلـزام يمكن أن يمسا أصـالة العبادة التي يفترض أن تنبثق من أعماق الفرد إلا أن من الإنصـاف أن نقـول **أولا:** إن هذا هو حكم الضرورات الاجتماعية التي بـني عليها المجتمع الإنسـاني، ولم يكن هنـاك بديل. **ثانياً:** أن مقياس المساس المظنـون بالأصـالة هو على أقله بالنسـبة للجمـاهير العريضة التي لا ترى في هـذا الفـرض والشـرع قيـداً على مبادئها أو حريتهـا، بل تـري فيهما عونا لها وإراحة من عناء الإبـداع والاختيـار، والفلاسـفة والمفكـرون وحـدهم هم الذين قد يجدون في أنفسهم شيئاً من هذا الفـرض والرسـم، ولكن هـؤلاء يفـترض أن يلموا بقوانين المجتمع وطبائع الأشـياء، وأن يكونـوا أول من يعـذر، بل وأول من يخضع ويلتزم، وهو الموقف الذي جعل عمر بن الخطاب يقول وهو يقبل الحجر الأسود "والله إني لأعلم أنك حجر. لا تنفع ولا تضر ولولا أني رأيت رسـول الله يقبلك ما قبلتـك" وهو أيضاً الموقف الذي جعل الصوفيين الثقات يلتزمون باداب الشـريعة ويـؤدون شـعائرها

الظاهرة عن صدق وإخلاص وإيمان حتى لو كـانت طـريقتهم الخاصة تقـوم على صـلة روحية ووجد عـاطفي، لأنهم يعلمـون أن هـذه الشـعائر هي الـتي تمسـكهم بالإسـلام وتحفظهم من أن يضـلوا في محيطـات الجمـوح العـاطفي. وعنـدما كـانت تغلبهم عـواطفهم فيما سـمي "بالشـطحات فـإنهم كـانوا يعتـذرون عنهـا، ولا يأخـذونها الأخذ الحرفي. **ثالثاً:** أن باب العبادة التلقائية الاختيارية الفردية غـير مغلق فهو مفتـوح لمن يشاء، إلى جانب العبادات المقدرة.

وتفاوت التوفيق الذي عـالجت به الأديـان هـذه القضـية، ونحن نعلم بـالطبع تلك الثورة العارمة الـتي ثارها المسـيح على "الفريسـيين" الـذين جعلـوا اليهودية طقوسـاً جامدة قاسية، وجعلوا من أنفسهم سدنتها الذين يحتكرونها ويفيدون من إعناتها للناس آونة ومن التحايل على هذا الإعنات آونة أخري. ومع ذلك، ومع أن المسيحية اصطنعت المحبة شعاراً والقلب ملاذاً، فإن وجود الكنيسة والأكليروس والسلطات الواسعة التي منحتها نفسها أوجدت ما يشبه الوصاية على ممارسة العبادة.

وقد جمع الإسلام ما بين الإلزام والتحديد من ناحية، وإتاحة قدر كبـير من الحرية والسـعة من ناحية أخـري، وسـنعرض لـذلك فيما بعـد، وقد يصـورها أن القـرآن – وهو الأصل الأصـيل للإسـلام – لا يضع إلا الخطـوط العريضة الأساسـية، ولا يتعـرض أبـداً للتفاصيل حتى في أهم النقاط مثل عدد مرات الصـلاة في اليـوم وعـدد الركعـات في كل صـلاة الخ.. كما قد يصـور الموقف التعبـير القـرآني "شـعائر اللـه" فالعبـادات في الإسلام "شعائر" تستمد من الشعور ولكنها تدور حول محور إلهي..

***

ومما يمت إلى هذه القضية بصـلة قضـية القيمة التهذيبية والنفعية للعبـادة. فقد رأينا أن العبـادة بعد وضع صـور محـددة لها وفـرض درجـات من الإلـزام بها لم تعد فحسب تفريغاً لشـحنة العاطفة الدينية الـتي تجيش بها النفس، أو تعبـيراً عن الإيمـان والولاء والمحبة والتفاني. وإنما أصـبحت كـذلك وسـيلة تربوية لتنمية الضـمير وتهـذيب النفس والسـمو بالأحاسـيس. لأن الله غـني عن العـالمين وقد وضع العبـادات لتهـذيب الناس وتـزكيتهم وتطهـيرهم ﴿إِنَّ الصَّـلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَـرِ﴾ .﴿لَنْ يَنَـالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُـهُ التَّقْـوَى مِنْكُمْ﴾ولكن يبـدو أن عنصر الشـكلية من ناحية وضـحالة فهم النـاس من ناحية أخـري.. إلى جـانب التيـار الـدافق لمادية العصر الـذي يسـتغرق الفـرد ويسـترقه وقتـاً وفكـراً جعل القيمة التهذيبية للعبـادة محـدودة. بل وأعطاها طـابع "التشـيؤ" أي فصل المضـمون عن الشـكل بحيث لا تفهم الحكمة من العبادة، أو يؤبه لها، وينصب الاهتمام على الشكل الذي يجمد ويتقولب ويصبح غاية في ذاته، بدلاً من أن يكون وسيلة لغاية. وبذلك حصرت العبادة في دائـرة ضـيقة مغلقة لا تنتقل منها لتؤثر في بقية جنبات النفس أو مجالات المجتمع. وهذا "التشيؤ" يكاد يكون مرضـاً متوطنـاً في العبـادات ولا يمكن علاجه إلا بحسن فهم الإسـلام ومعرفة روحه وحكمتـه، وجـانب الشـكلية هو على أقله في الإسـلام. ويجب أن نضع في اعتبارنا أن العبادات بأسرها ليست في ترتيبنا إلا جزءاً من مكونات الإسلام وأنه حتى لو لم تحقق الهدف التهذيبي بالكامل، فإن جزءً من هذا الهدف المأمول سيتحقق، وللإسلام وسائله الأخـرى النابعة من بقية المكونـات الـتي سـيرد الحـديث عنها في الفقـرات الـتي تلي فقرة "العبادة"..

***

والعبـادات الإسـلامية معروفـة.. وليس من شـأن هـذا الكتـاب الحـديث عنها بالتفصيل، ولا المجال يتسع لذلك.

قصارى ما سنورده إشارات سريعة إلى بعض ما يعرض للنفس عنها..

والصـلاة أولى العبـادات الإسـلامية وأهمها وتتضح أهميتها من الحث المتكـرر والمتوالي عليها والأمر بها في القرآن والحديث.

والصلاة لغة الـدعاء ولكنها اصـطلاحاً تلك "الشـعائر" الـتي تـؤدى بطريقة معينة حدد خطوطها العريضة القرآن الكريم، وتولت تفاصيلها السنة النبوية، فعلية وقوليه.

وهكـذا نجد أنه حـتى في الصـلاة، أي الـدعاء والصـلة بالله والابتهـال إليه فـإن ضرورة تحديد ذلك ورسمه قد فرضت نفسها.

فالصلوات المفروضة في اليـوم خمسـة. وقد بـدأ هـذا العـدد قليلاً للأولين، وهو يبدو كثيراً للآخرين. والحق أنه وسط مع ميل للتحرز والتحـوط وإشـعار الفـرد الخـاص للصلاة، فلو كانت ثلاثة لماعت وسط التقسيم المبتذل لصـباح، وعصـر، ومسـاء، ولكن تحديدها بخمسة أصبح إضافة تنبيهيه أو إشـعاريه، وكـان يمكن لهـذه الإضـافة أن توجد وعياً خاصاً بالتوقيت والضبط لو أحسن المسلمون فهم صلاتهم.

ويماثل هـذا الاتجـاه في التحديـد، الاتجـاه في الأداء. فالصـلاة الإسـلامية تضم – فيما تضمه – قراءة القرآن، وركـوع وسـجود يتضـمنها دعـاء، وجلسة "تشـهد".. وهـذه كلها مرسومة ومحددة، أريد بها إشعار الجسم والحوا س والفكر الخشوع والإحســاس بمعني الصلاة.

في مقابل هذا التحديد هناك بعد عن الشـكلية، فالصـلاة تجـوز في الفلاة، وعلي الأرض، وفي قعر البيت، وبأي ملابس. وحتى وقتها فإنه على تحديده مفتوح حتى بداية وقت الصلاة التالية.. وفي الوقت الذي تقرأ فيه الفاتحة في كل الصلوات، فهناك حرية في قـراءة أي نص قـرآني بعـدها، وبهـذا تجمع الصـلاة بين الإلـزام والتحديد من ناحية والحرية والمبادءة من ناحية أخرى

ومن المسـلم به أن معظم النـاس يصـلون صـلاة آلية تهـاجمهم فيها المشـاغل والعواطف، وقد تكون بعض هذه الهواجس من أسوأ الشهوات التي يقـذفها الشـيطان في الذهن.

ومن المسلم به أيضاً أن هنـاك من يـدع عمله ويصـلي الظهر "حاضـراً" حرصـاً على وقته ثم يخرج من عمله قبل وقت العمل أو يعرف عنه أنه لا يضبط ميعاداً أبـداً.. وأن هنـاك من يضـيف على الصـلاة المكتوبة سـنناً، شـفعاً ووتـراً، ثم يبخس النـاس أشياءهم، ويضيع عليهم وقتهم. مما ينم على أن هؤلاء لم يفهموا الحكمة في الصـلاة.. وأن الصلاة بالنسبة لهم أخذت طابع "التشيؤ" المصمت.

وقد يكـون من الخـير لهـؤلاء أن يقتصـروا على الصـلاة المفروضة ولا يبخسـوا النـاس أشـياءهم، وأن يـؤدوا أعمـالهم خاصة إذا كـانت تتعلق بخدمة النـاس ويرجئـوا الصلاة إلى آخر الـوقت أو أن يفيـدوا من مبـدأ الضـرورة، أو حـتى من الرخصة الـتي أجازها النبي حتى لا يحرج أحد من أمته على حد قول ابن عبـاس، وأعـني بها الجمع بين الصلاتين في وقت واحد.

وقد جاءت هـذه الرخصة رواية عن ابن عبـاس في مسـند الإمـام أحمد ومسـلم والبخـاري، وتأولها الفقهـاء على أنها "الجمع الصـوري" أي أن يصـلي صـلاة في آخر وقتها، والثانية في أول وقتها ولكن سياق الحديث لا يسمح بهذا. ورأى أحد الفقهـاء أن "الفقهاء جميعاً على ترك العمل بهـذا، إما لأنه منسـوخ أو لأنه فعله في حـال ضـرورة إما لمطر أو شغل[27].

وقد قرأنا مقالاً قيماً عن هذا الموضوع لإمام من أئمة الشيعة في مجلة "رسالة الإسـلام" لم يكتف فيه بتعزيز دليل الجمع من واقع الحـديث، بل أراد الاسـتدلال عليه بالقرآن أيضاً فقال "والدليل على جواز الجمع مطلقاً موجود والحمد لله سنة صـحيحة صـريحة كما سـمعت، بل كتابـاً محكمـاً مبينـاً، ألا تصـغون لأتلو عليكم من محكماته ما يتجلى به أن أوقـات الصـلوات المفروضة ثلاثة فقـط، وقت لفريضـتي الظهر والعصر مشتركاً بينهما، ووقت لفريضتي المغرب والعشـاء على الاشـتراك بينهما أيضـاً وثـالث لفريضة الصبح خاصة، فاستمعوا له وأنصتوا أَقِمْ الصَّـلاةَ لِـدُلُوكِ الشَّـمْسِ إِلَى غَسَـقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً[28].

---

27 **27. تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص 261**

28 **28. رسالة الإسلام السنة السابعة العدد الثاني رمضان 1374 إبريل 1955 "الجمع بين الصلاتين" لحضرة صاحب السماحة للعلامة السيد شرف الدين الموسيري – لبنان ص 148.**

ومع إننا نوافق فضيلة الكـاتب على ما جـاء في مقاله إثباتـاً للأحـاديث ومعظمها عن بن عباس، إن كان أحدهما جـاء مسـنداً إلى معـاذ بن جبل والآخر مـأثوراً عن عبد الله بن عمر، وأننا أيضاً نوافقه على أن الورع الـذي حمل العلمـاء على عـدم الاعتـداد بهذه الأحاديث لكي لا يجرئوا العامة على الجمع، أدي بكثير من أهل الأشغال إلى تـرك الصـلاة كما شـاهدناه عياناً بخلاف الجمع فإنه اقـرب إلى المحافظة على أدائها وبهـذا يكون الأحوط للفقهاء أن يفتـوا العامة بـالجمع.. وأن "ييسـروا ولا يعسـروا"، نقـول مع أننا نوافق على كل هـذا، فـإن شـيئاً يحـوك في الصـدر من الاسـتهلال بهـذا الأمـر.. والمفروض عندما يسمح به أن يكون ذلك على أساس دفع الحرج، وليس القاعدة..

أما اسـتدلال فضـيلة الكـاتب بالآية وفهمه لها فهو أمر خطـير، ونعتقد أنه حمل الآية أكثر مما تحتمل لأن النص على أوقات معينة لا يعني ضرورة الحصر في الأوقات، فضلاً عما هو معروف من أن السنة مفصلة القرآن.

وكـذلك قرأنا دفـاع الفقهـاء عن تأويل هـذه الأحـاديث بما يتفق مع ما ذهب إليه الجمهور من عدم جواز الجمع بغير عذر فوجدنا فيه تكلفاً كبيراً.

وما تطمئن إليه النفس أنه رخصة ألهمها الله تعالى نبيه لما سـبق في علمه من ازدياد المشاغل وتحكم الأعمال في الناس.

ومع هذا فلا ريب في جدوى الصلاة حتى للذين لا يصلون بالخشـوع أو بالانتظـام أو الحضور الذهني، أو للذين يصلون كنوع من الالتزام أو التقليد**...**

فالصلاة بالنسبة لهم حبل يربطهم بالإسلام، وفي بعض الحالات يكون هذا الحبل طويلاً بحيث يشرد صـاحبه أو يضـل، ولكن هـذا كله محـدود، ويمكن أن يعـود. وتكـون الصلاة هنا بمثابة طـوق نجـاة لا يفيد صـاحبه في مجـالات عديـدة من مجـالات الحيـاة والمجتمع، ولكنه يقيه أسوأ الاحتمالات: الغرق.

وفي الوقت نفسه هناك مزايا أخرى عديدة تبعية ...

فستلزمه الصلاة الركوع والسجود وإذا أداهما الأداء السليم (فركوع النبي ﷺ مثلاً يفترض الاستواء المستقيم للظهر حـتى لو سـكب عليه مـاء لما انسـكب). فسيكتسب صحة وسيمارس رياضة

وستفرض عليه الصلاة أن يتوضأ، فيغسل يديه وقدميه، والله أعلم ما يكون عليه مستوى النظافة لو لم يفرض الإسلام الوضوء. فـإذا أراد أن يفلت من تجديد الوضـوء، فعليه أن يتحكم في حواسه فيكسب في جميع الحـــالات، إما النظافة وإما التحكم في الحواس.

وعندما يلزم أحد الناس نفسه الانتظام في الصـلاة فسـيقوي ذلك من إراداتـه.. وإذا فرط فسيشعر بوخز الضمير والتقصير ويدفعه هذا وذاك إلى التعويض والتفكير..

وسـتودي مقاومته للهـواجس الشـريرة والأفكـار المثـيرة الـتي تهاجمه خلال الصلاة، أو الشرود إلى التمرين على تركيز الذهن..

وأخيراً فستضطره الصلاة إلى حفظ بعض الآيات إلى جانب الفاتحة، وهي ثـروة حقيقية وبركة...

وأغلب الظن أن يفتح الله عليه في النهاية فتتجلى له الصــلاة على حقيقتها بكل جمالها وروائها وأسرارها...

وبعد الصلاة تأتي الزكاة...

وهكذا وضعها القرآن، وهكذا يكون علينا أن نضمها.

والزكـاة لغة النمـاء والطهـارة والبركة والمـديح وقد اسـتعمل القـرآن اللفظة ومشتقاتها في كل هـذه المعـاني، ولكن الزكـاة اصـطلاحاً هي ذلك الفـرض العيـني أو المالي الذي يكون على كل ذي مال تقديمه لينفق في مصارف معينة.

وهـــذه التســـمية – الزكـــاة – هامة لأنها توضح الفـــرق الأساسي بينها وبين "الضريبة" التي يمكن أن تفرضها الدولة. فالأولى: الزكـاة، لها جانبها التعبـدي. وأداؤها يطهر النفس، وهو يؤتى طواعية. بل ويصطحب بالسرور والراحة. فالمؤمن حقاً يخرج خير ماله للزكاة.

وفي بعض الحـالات يشـير القـرآن للزكـاة باعتبارها "صـدقة" ﴿خُـذْ مِنْ أَمْـوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾ ويوجد هذا لبساً للذي يعتقد أنها "حَـقٌّ مَعْلُـومٌ" كما جـاء في آيات أخرى. والحق أنه ليس هناك خلاف فهي حق معلوم بالنسبة للمحتـاج إليها يكـون على المؤمـنين أو على الحكومة الإسـلامية كفالتها لـه. وهي صـدقة بالنسـبة لـدافعها. ومن ثم فإنها تجمع الحسنيين للطرفين..

وقد يعـترض البعض على أسـاس أن أبا بكر حـارب العـرب لمنعهم الزكـاة فلو كانت "صدقة" لما جاز حربهم عليها. والـرد على هنا أن منع العـرب للزكـاة أخذ شـكل الرفض الجماعي وطابع التمرد، وفي الوقت نفسه فإن كونها صدقة لا يقتضي ضـرورة تضـمن عنصر الحرية في دفعهـا. وليس في الأصل اللغـوي لكلمة "صـدقة" ما يـوحي التبرع والتطوع على العكس إنها من مشتقات التصـديق والاتبـاع فـإذا لم يـدفعها بهـذا المعنى طولب بها وعوقب عليهـا، ومع هـذا فهنـاك مثل "ثعلبـه" المعـروف الـذي بخل بالزكـاة ثم نـدم وجـاء بها إلى النـبى ﷺ ولكن النـبي ﷺ رفضـها ثم جـاء بها إلى أبي بكر الصديق فرفضها، وإلى عمر فرفضها وإلى عثمان فرفضها حتى مات في خلافة عثمان ويقول المفسرون إنه هو الذي نـزلت فيه الآية الرهيبة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَـدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُـوا اللَّهَ مَا وَعَـدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

ونحن نميل لأن نعتبر الزكاة عبـادة وشـريعة معـاً. بمعـنى أن لها جانبها العبـادى الإيمانى، وجانبها الاجتماعي الإلزامي..

وهنـاك فـرق أساسي آخر بين الزكـاة وبين الضـرائب الأخـرى قلما ينتبه إليه الكتاب. ذلك أن الزكـاة مفروضة على "رأس المـال" أما معظم الضـرائب فإنها تكـون على "الدخل".

ومصــارف الزكــاة توضح مــدى اتســاع وكــرم دائــرة التكامل الاقتصــادي في الإسلام...

***

والصيام من العبادات المأثورة في كل الأديان وإن اختلفت صورها وأوقاتها.

وقد اختار الإسلام أن يبدأ الصيام بالفجر وأن ينتهي بغروب الشـمس، لأن الفجر والغروب أوضح الظواهر الجوية ويمكن أن يظهر لكل الناس في كل مكان.

كما اختار أيضاً شهراً متواصلاً، لأن المواصلة يمكن أن تعمق المعنى المطلوب..

وجعل الصيام الامتناع عن الشراب والطعام ليكون الإحساس بالصيام فعالاً، ولو أباح شرب الماء مثلاً لفقد الصيام فعاليته..عذابه وفرحته...

واشـترط لكمـال الصـوم البعد عن الـرفث والفسـوق والسـباب والامتنـاع عن الشهوات...

وهذه كلها هي أفضل الاختيارات. فإذا صام المسلم هذا الصـيام فلا ريب في أن هذا تدريب صارم ودقيق للنفس وللجسم، وقد يتضمن مشقة وإعناتـاً للكثـيرين، ولكن الإسلام يريد للمؤمـنين به أن تغلب عـزائمهم شـهواتهم وأن تخضع مقتضـيات حيـاتهم اليومية لإرادتهم فلا تسترقهم أو تتحكم فيهم العادات..

ولكن الصائم إن امتنع عن الشراب أو الطعام.. ونال من الأعراض أو تـورط في الشهوات.. أو قصر بحجة الصيام فليس له من صومه إلا الجوع والعطش.

ولو صام الصيام المشروع ثم عوض في الفطار ما فاته طول النهار بحيث يفوق ما يأكله في الإفطـــار ما يأكله في وجبــــات ثلاث أو وجبــــتين. فإنه يسء إلى حكمة الصيام، بل ويذهب بها ويجعل من شهر الصيام شهر الطعام!

وما يفعله المصريون في رمضان أكبر دليل على الجهالة المستحكمة التي تصل إلى قلب الأوضاع.

فمعظم الصائمين يعاقبون إخوانهم بهذا الصيام.. ويجنون على عملهم بحجته.

فإذا جاء الإفطار ملئوا البطون كل على مكانته وقدرته..

وقبل أن ينتهي الإفطار يبدأ زحف الإذاعة وهجـوم التلفزيـون بكل ما يتصـور من نكات، وفوازير، وأحاجي، وأغـانى، وأفلام وتمثليـات.. ومجـون أعد خاصة لهـذا الشـهر الكريم!

***

ومن العبادات الإسلامية الحج، لمن استطاع إليه سبيلا.

والحج عبادة يغلب عليها الطابع الجمـاعي والطقوسـى، ومع ذلك فـإن رؤية تلك الأماكن والبقاع الحافلة بالذكريات ومواقع الكفاح الأول.. وذكري إبراهيم وإسـماعيل.. وهما يرفعـان القواعد من الـبيت. وتمثل هـاجر – الأم الملتاعة تبحث عن المـاء لأبنها العطشان حتى تجد "زمزم". واجتماع المسلمين كافة على عرفة يلبسون لبساً واحـداً بسـيطاً يمحو الفـوارق.. وزيـارة الروضة النبوية والوقـوف ببابها حيث ثـوى الرسـول العظيم وصـاحباه رمز الصـحبة والوفـاء والاتبـاع.. وهـذه الـذكريات كلها تسـتغرق الشكليات التي تحفل بها مناسك الحج.

الفصل السادس
والإسلام خلق...

عندما تذكر الأديان يتراءى بحكم تداعي المعاني العقيدة والعبادة...

وهي ظاهرة لا تجوز على الإسلام إذا جازت على باقي، الديانات لأن من المقرر أن الإســلام بحكم نشــأته وطبيعتــه، وما أراده الله له نهج في الحيــاة يظلل مجالاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويحدد للمؤمنين به المواقف الـتي يقفونها والخلائق التي يتخلقون بها في هذه المجالات كلها..

وقد تنبه بعض المفكرين المسـلمين إلى هـذه الحقيقـة، ولكن تعبـيرهم عنها لم يأت فيما نرى بالطريقة المثلى..

فقد أحسن بعض الغيورين الثقات عندما سكوا تعبير "الإسلام عقيـدة وشـريعة" حرصاً على الجانب التشريعي ودفعـاً لما يتبـادر إلى أذهـان المحـدثين من أن الإسـلام صلاة وصوم...

ومع هذا فإن التعبير لم يكن كافيـاً، ولئن أحسن في ناحية فيخشى أن يفهم منه معنى الحصر، ويكون ذلك إخلالاً بأحد مكونات الكبرى للإسلام. وهو الخلق.

ولا يصلح عذراً أن يقال إن العقيدة تتضمن الخلق فلو أحسن الفـرد الإيمـان بها لحسن خلقه وصلح سلوكه لأنه إذا جاز هذا المنطق بالنسـبة للخلـق، فإنه يجـوز أيضـاً بالنسبة للشريعة، ولا يكون هناك مبرر لخصها بالنص.

وهناك بعد، نظر في صحة الاستدلال أو جوازه لما أوردناه في مقدمة هذا الباب من تعقيد وتركيب النفس الإنسانية وتعدد ملكاتها، وانفصال بعضها عن بعض.

ولعل هذا أحد الأسرار في أن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يدمجا الخلق في العقيدة بحيث يمحى وجـوده الخـاص، وتحـدث على كل منهما بما يؤكد ذاتيتـه، فـذكرا الأخلاق بأعيانها من كـرم أو حلم أو حيـاء أو عـدل أو إنفـاق.. إلى جـانب الإيمـان بالله ورسله واليـوم الآخـر، فلو كـان الإيمـان وحـده يكفي لما كـان هنـاك مـبرر للنص على الأخلاق، أو التغليظ فيها أو توالي إردافها بعد الإيمـان والصـلاة، فقلما تـذكر الصـلاة إلا وتتلوها الزكـاة وقلما يـذكر الـذين آمنـوا إلا ويعقبها وعملـوا الصـالحات وهي ظـاهرة فاشية في القرآن لدرجة تلفت النظر.

وعلى هذا فإذا أريد ذكر المكونات الأساسـية للإسـلام. فيجب النص على الخلق بين هذه المكونات، وأي إجزاء لإحدى المكونات عن الأخرى يكون خلطاً. وأي اسـتبعاد لواحدة يكون إخلالاً، ويذهب إذا جاز حساب الأرقام بثلث أو ربع الإسلام.

ومعـنى هـذا أنه إذا آمن أحد النـاس بالله ورسـله وملائكته واليـوم الآخر وأدى العبادات كاملة، ولكنه مع كل هذا كان ظالماً، أو كاذباً أو منافقاً، فإن إسـلامه لا يكـون كاملاً، وكما أنه سيثاب على أدائه للعبادة، فإنه سيعاقب على سوء خلقه.

وقد رسم القرآن ما يمكن أن يكون لوحات وصفية لما يجب أن يكون عليه خلق المسلمين، وما يفـترض أن يكـون عليه مجتمعهم بحيث يلم النـاس بالمضـمون العـام، كما أنه في حالات أخرى يخص بالذكر خلقاً معيناً أو يحض على سلوك بالذات.

ومن اللوحات الوصفية مثلاً...

- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُـونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ أُوْلَئِكَ سَـيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

- ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ﴾.
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.
- ﴿قل تعالوا أتل قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
- ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.
- ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ﴾.
- ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وهناك أحاديث عديدة تؤيد هذه المعاني وتفصلها مثل:

- "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يثلمه ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة". (البخاري، ومسلم وأبو داود)
- "الحياء من البر". (البخاري ومسلم)
- "البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس". (مسلم والترمزى)
- ".. وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة ". (البزار)
- "إن الله ليُبلغ العبد بحسن خلقه درجة الصوم والصلاة" (الطبرانى في الأوسط)
- ".. والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل يا رسول الله لقد خاب وخسر من هذا؟ قال من لا يأمن جاره بوائقه قالوا وما بوائقه قال شره". (البخاري)
- "اتقو الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ". (مسلم)
- "اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن". (الترمزى)
- "الكلمة الطيبة صدقة ". (البخاري ومسلم)
- "الإيمان بضع وستون – أو وسبعون – شعبة، أدناها إماطة الأذى من الطريق، وأرفعها لا إله إلا الله". (البخاري ومسلم وأبو داود)
- "آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم". (مسلم)
- ".. أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصوم وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دماء هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار". (مسلم والترمذى وغيرهما)
- "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهي الله عنه. (البخاري ومسلم)
- "إن المسلم المسدد ليدرك درجه الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته".
- "قال رجل يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال هي في النار قال يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها قال هي في الجنة ". (احمد والبزار وابن حبان والحاكم في المستدرك)
- "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له به كاذب". (أبو داود)

فهذه الأحاديث، ومن قبلها الآيات صريحة في أن المسلمين مطالبون بخلق معين يثابون عليه، ومنهيون عن خلق معين يجازون عليه وأن هذا يعد من صميم الإيمان بحيث يعد الإخلال به إخلالا بالإيمان نفسه.

ونرى هــذه الخلال في كثــير من الحــالات مقدمة في الآيــات والأحــاديث على العبادة الخالصة من صـلاة أو صـيام. وتعطينا هـذه الخلال في مجموعها صـورة للخلق الإسلامى الذي يقوم على استشعار الحاسة الإسلامية في السلوك والتصرفات، وتكون أركانه العــدل والرفق والقصد في الأمــور وأداء الأمانة والوفــاء بــالعهود والحقــوق والتجـاوب مع المؤمـنين بتقـديم النصح أو بـذل العـون أو التعـاون على الـبر والتقـوى والبعد عن الشح والأثرة والغلو والاستعلاء.

ويلحق بهذا الخلق ما نسميه "الإتيكيت الإسلامي"أو قواعد التهـذيب الـتي تنظم الحياة اليومية، وهي ناحية هامة من العجيب أنها أغفلت ولم ترزق حتى الآن التصــنيف اللازم بحيث ترك الجيل المسلم ينشأ "شيطاني" دون أي توجيه في التهـذيب. فقواعد التهـذيب الأوروبية لا تناسـبه، فضلا عن أنها ليست في متنـاول يـده دائمـاً، والقواعد التهذيبية الإســلامية منســية أو مجهولــة، وكــانت نتيجة ذلك هــذا الخلط والفجاجة والفظاظة "والجليطـة" في حين أن القـرآن الكـريم وكتب الحـديث لم يتركا حركة أو سكنه وتصرفا صغيراً أو كبيراً حتى في أمس ما يكــون بين الرجل وزوجتــه، إلا ووضعا آداب وقواعد وطرقاً لذلك كله.

والإتيكيت الإسلامي أعـرق أنمـاط الإتيكيت، ثم هو مقـدس بنزوله من السـماء، مبارك بوضع النبي له.. فأى أتيكيت يمكن أن يسـامى الإتيكيت الإسـلامى، أو يكـون له ما لهـذا الإتيكيت من فخر وعراقـة؟ إن الإتيكيت الأوروبى لا يعـود في معظمه إلا إلى أكثر من مائة سنة، وإن عاد القليل منه إلي ما هو أبعد من ذلـك، في حين أن الإتيكيت الإسلامي يعود إلى ألف وثلاثمائة عام.

خذ مثلاً لـذلك آداب الاسـتئذان فقد نـزلت فيها عـدة آيـات مفصـلة من سـورة النور، بعضها يتناول ما يمكن أن نسميه "الاستئذان بصفة عامـة" والبعض الآخر يتنـاول أوقات "الاستئذان" وجاءت أحاديث... تكمل ما أجملته الآيات.

والآيات هي:

- (أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْـرَ بُيُـوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُـوا وَتُسَـلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَـداً فَلا تَـدْخُلُوهَا حَتَّى يُـؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَـارْجِعُوا هُـوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُـونَ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْـدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ(.

فأوضحت هذه الآيات **أولاً:** أن من الضـروري الاسـتئذان والسـلام قبل الـدخول **ثانياً:** إذا لم يوجد أحد فيجب عدم الدخول. **ثالثاً:** إذا رفض الـدخول فعلى المسـتأذن أن لا يجد غضاضة من ذلك، ويرجع فقد يكون هناك من الأسباب – الــتي لا يعلمها – ما يتطلب ذلك **رابعاً:** لا تسري هذه الأحكام على المحال العامة.

وقد وضحت الأحاديث طريقة الاستئذان والسلام وهو أن يقـول.. السـلام عليكم أأدخل؟ "فإن سئل من؟ فلا يرد أنا.. ولكن يقول فلان".

والآيات الأخرى (**الخاصة بأوقات الاستئذان**)**:**

- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُـوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَـاءِ ثَلاثُ عَـوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَـاحٌ بَعْـدَهُنَّ طَوَّافُـونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(.

وقد أوضحت هذه الآيـات أن أطفـال الأسـرة وشـبابها وخـدمها أن يسـتأذنوا في ثلاث أوقـات معينة هي الصـباح البـاكر، والظهـيرة، والليـل، وهي أوقـات خلع الملابس والنهوض من النوم أو الاستلقاء، وفي غير هذه الفترات لا يكون هناك حاجة للاستئذان

لأنهم من أهل الـبيت أو الخـدم ويغلب أن يكـون الاسـتئذان لـدخول حجـرة النـوم، أو المخادع.

وأوضحت الأحاديث الحكمة في هذا حتى لو كان المسـتأذن ابنا على أمه أو أخـاً على أخته، بل أوضـحت أحـاديث أخـري أن من الخـير أن لا يطـرق الرجل أهله ليلا إذا عاد من سفر.

ولما كان القرآن قـد رأى في هذه الأوقـات أوقـات التبـذل و"العـورات"، فيفهم من هذا كراهة الزيارة فيها إلا لضرورة قاهرة

وتتضمن مسانيد الحديث كتباً كاملة عن كل باب من أبـواب الأتيكيت مثل كتـاب السلام، وكتاب المجالس، وكتاب الزينة، وكتاب اللباس وكتــاب الوليمة الخ.. فضلا عن أدق ما يكون بين الرجل وزوجته من آداب جنسية..

وقد جعل التطـــور صـــور بعض هـــذه الآداب متخلفة أو منقرضة "مثل الأكل بالأصابع" وليس علينا حرج في هـذا، لأن المقصـود بها التـأدب، وليس التعبـد، ولكن لا يزال لمعظمها سلامته وامتيازه الذي أكده العصـر. وإنه لمن أهم الواجبـات أن تصـنف هذه الآداب في فصول وأبواب بلغة سهلة وأن تـدرس في المـدارس حـتى يلم النشء بآداب دينـه، وقواعد السـلوك والتهـذيب فيلزمها أو يكـون لديه على الأقل معيـار يكبح جماحه إن لم يستطع أن يطبقه.

الفصل السابع

والإسلام شريعة...

ظهر الإسلام في مجتمع قبلي لم توجد فيه قوانين مقررة ولا شرائع مؤصلة فكان عليه أن يضع هذه القوانين والشرائع، ولا منافاة بين هذه الملابسة الخاصة وأن الإسلام بطبيعته دين شامل، لأن الله تعالى يهيئ الأسباب لتتحقق النتائج، فقدر أن يظهر هذا الدين وسط هذا المجتمع القبلي ليجد فرصته في التشريع والتقنين ولتظهر آثار وحكمة هذا التشريع.

وعندما تذكر الشريعة تذكر الحدود والقصاص ولكن الحقيقة أن الشريعة الإسلامية تشمل إلى جانب التشريع الجنائي التشريع المدني والتشريع الاقتصادي والنظام السياسي وتشريع الأحوال الشخصية، - كما يقولون - وإنما جاء التركيز على الحدود والقصاص لما خصت به من شهرة ولما يتمتع به دائماً القانون الجنائي من منزلة. وسنجري على هذا السنن أى سنركز الإشارة على التشريع الجنائي مع إشارة مقتضبة إلى التشريعات الأخرى.

وتستلهم الشريعة الإسلامية أصولها وقواعدها من أصول وقواعد الإسلام. والإسلام دعوة موضوعية مبدئية، أي أن لها مبادئ موضوعية يجب أن يلتزم بها المجتمع، لأن في هذا الالتزام صلاحه، إذ لما كانت هذه المبادئ منزلة من الله، فإنها أفضل المبادئ وأصدقها موضوعية. ولكن لما كان هذا الاستدلال لا يجد تجاوباً مع الذين لا يؤمنون بالله، أو يرون فيها افتراضاً أو تلاعباً بالألفاظ، أو كانوا من الذين تشمئز قلوبهم لذكر الله على حد تعبير القرآن، فنحن نقول لهم كائناً ما كان إيمانهم، إن الفكرة الأساسية في الأديان هي وضع مبادئ لها من الأصالة، والصدق، والموضوعية ما يهدي الناس دون أن تتأثر باختلاف أجناس هؤلاء الناس أو أوقاتهم أو أماكنهم. والأديان في هذا تختلف عن الدعوات الديمقراطية التي تستهدف إرضاء أغلبية الناس أو الدعوات الفردية التي تزعم للفرد غائية يكون على المجتمع أن يكيف نفسه طبقاً لها

ولا يعني هذا أن الإسلام لا يتقبل فكرة المرونة أو التطور أو الذاتية أو تغير الأوضاع، إنه يقبلها، بل لقد ظهر من العلماء المتقدمين – ومن الحنابلة بالذات – من قدم المصلحة على النص وهو نجم الدين الطوفى الحنبلي المتوفى سنة 716هـ. وقد بنى رأيه في تفسيره لأحد الأحاديث أن الشارع استهدف المصلحة فالمصلحة هي الهدف، فإذا وجد نص يعارض المصلحة فيجب تقديم المصلحة "بطريق التخصيص والبيان لها لا بطريق الأفتيات عليها والتعطيل لها ".

وعلى ما يبدو من سلامة وبساطة هذه المقولة فإنها حافلة بالثغرات، **فأولا**، ليس صحيحاً أن المصلحة، بالمعنى المفهوم، هي الهدف الأساسي للأديان. لأن الفهم الإنساني للمصلحة يمتزج بمعنى النفع. وهناك فرق بين الرسالة الدينية التي تستهدف الهداية وبين مذهب المنفعة المعروف والذي يعد "بنثام" أبرز المدافعين عنه في العصر الحديث والذي يستهدف المصلحة فالمصلحة دائماً تتجرد من القيم والموضوعية، وليست مأساة التقدم الأوروبي سوى تجرده من القيم كما أشرنا، **وثانياً** أننا حتى لو سلمنا بأن المصلحة هي هدف الشارع، فليس من الأمور المسلم بها أن الناس سواء كانوا جماهير أو قيادات، يتوصلون دائماً إلى هذه المصلحة.. وتاريخ التقدم البشري يؤكد ذلك فقد حوربت كل خطا التقدم، وكل الأفكار الرائدة، بل وحتى المكتشفات والمخترعات التي لا يتصور أن تكون فائدتها محل شك! فتحديد المصلحة ليس من البساطة أو السهولة التي تبدو للوهلة الأولى. ولو سألنا مصلحة من؟ لما كان هناك رد صريح شامل فمصلحة العمال غير مصلحة الرأسماليين. ومصلحة المحكومين غير مصلحة الحاكمين الخ**...** وأغلب الظن أن تضلل الجماهير المستغلة المحكومة بحيث لا تتعرف على المصلحة، أو تموه عليها بينما تستأثر القلة

الحاكمة لتحقيق مزيد من "المصلحة" لها أو على الأقل تحافظ على الوضع القائم. **وثالثاً** أن المجتمع يحتاج إلى قدر من الثبات والحفاظ وأن يسير تقدمه بنسبه متزنة، الأمر الذى يتطلب معايير موضوعية وضوابط تحكم هذا التقدم، وكل ضوابط لا تكون موضوعية لا تصلح، وكل موضوعية لا تستلهم من الله لا تكون مطلقة أو ملزمة.

والملحوظ أن التقدم المتزن يقاوم، في حين يسمح بنوع من التهور والاندفاع والنزوات. وآية ذلك أن التقدم المادي الكبير لم يصاحبه تقدم نفسي أو خلقي أو اجتماعي يماثله أو يقاربه. **ورابعاً** أن هناك ضرورة لتوفر صفتي القداسة والموضوعية لعدد من المبادئ الكلية العظمى التي يقوم عليها المجتمع، ولا يجوز أن تتزعزع لأنها بمثابة "البوصلة" التي تشير إبرتها إلى الاتجاه الواحد، وبفضل هذا الثبات والاتجاه الواحد تعرف بقية الاتجاهات... وتقاس خطا التقدم ومدي حقيقة المصلحة... وقد ناصرنا مقولة ابن الطوفي واستشهادنا بها في كتابنا " ديمقراطية جديدة الذي صدر 1946، وكنا في ميعه الشباب، وكان لدينا من الأوضاع وقتئذ ما يبرر ذلك، ولكننا الآن بعد مضي نصف قرن، نرى الأمر في ضوء مختلف. وهذه الواقعة في حد ذاتها، توضح زئبقية رؤية المصلحة واختلافها، وكيف أن العوامل تؤثر على الإنسان في تحريه المصلحة. وشأننا في هذا شأن المجتهدين الذين كانوا يختلفون فيما بينهم بل كان الواحد منهم يرى الرأي ثم يرجع عنه بعد مدة عندما يظهر له دليل جديد.

لهذا كله، فنحن نري أن الإسلام لا يرفض فكرة المرونة والذاتية والمصلحة وتغير الأوضاع ولكنه يضعها في التفاصيل. أما في المبادئ الأساسية أو الكليات فيفترض التزام الناس بها لان هذا الالتزام هو هداية البشرية، وهو ما يميز الأديان عن المذاهب والدعوات الأخرى، فالأديان تهدي الإنسان في حين أن الدعوات الأخرى حتى وان استهدفت علاج المشاكل، فأنها قد لا تهدي – ضرورة – الإنسان.

وبذلك يجمع الإسلام بين الثبات والوحدة والموضوعية في الكليات والمرونة والذاتية في التفاصيل.

***

والطابع الأساسى للإسلام هو – كما ذكرنا "العدل" الذي يتجلي في كافة مايقرره من أوضاع سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو حتى عبادية، وهو المبدأ الأساسى الذي استلهمته الشريعة الإسلامية، ويمكن تقصي آثاره عليها.

فالإسلام يفترض بادئ ذي بدء قيام مجتمع عادل يكف الفرد السوي عن الإنحراف.. فإذا لم يوجد هذا المجتمع العادل، أو حاق به ما يؤثر على "عدالة" الأوضاع، فإن آثار ذلك تنعكس على العقوبة كما حدث في عدة حالات عارضة ارتقت إلى مستوي الإيقاف المؤقت لحد من الحدود المقدسة حتى ينتهي هذا العارض.

ولكن الإسلام – مع هذا – يتقبل فكرة أن يحدث الانحراف رغم سلامة الأوضاع، فليس هناك مبرر لكي نفترض أن سلامة الأوضاع الاجتماعية ستستأصل استئصالا كاملاً الانحراف أو الجريمة، وان كان ذلك سيجعلها محدودة جدا، لان التعقيد النفسي والفردي يكون بمنأى عن الأوضاع الاجتماعية، فضلا عن أن افتراض سلامة الأوضاع هو دائما فرض نسبي. ومن أجل ذلك سيكون هناك انحراف أو جريمة حتى في أفضل المجتمعات. وعندما يحدث هذا فان الإسلام يري فيه اعتداء على المجتمع، ويعني بحماية المجتمع أمام مزيد من الجرائم، وتحدد العقوبة على هذا الأساس، أى على أساس الردع..

وعندما لم يفهم الشاعر هذه النقطة تساءل.

يد بخمس مئين فضة فديت ما بالها قطعت في ربع دينار

فالسارق هنا لم يعاقب على سرقة دينار أو ربع دينار ولكنه عوقب على السرقة، ولإنتهاكه حرمة مجتمع كفل له وسائل الرعاية، والجريمة هنا إجتماعية، والعقوبة أيضاً اجتماعية، ومن هنا كانت قسوتها وهذا هو ما توصل إليه تقريباً الشاعر الذي فهم حكمه الشريعة عندما رد على التساؤل السابق:

وما نريد أن نصل إليه أن فكرة الردع الاجتماعي بما تتضمنه من قسوة لا تخـرج في التحليل الأخير عن دائـرة العـدل الـذي الـتزم به الإسـلام ولكن المنـاط في تحديد العدل كان هنا المجتمع لا الفرد.. المعني الـذي يتضـمنه الجـرم. وليس الجـرم في حد ذاته...

ويقسم الفقهـاء العقوبـات في الشـريعة الإسـلامى إلى **ثلاثة أقسـام: الأول الحدود والثاني القصاص والثالث التعزير.** وسنقصر حديثنا على القسمين الأول والثاني لأنهما المستمدان رأسا من صريح القرآن والسنة. أما التعزير الذي يترك أمره عادة لولي الأمر ويتعرض لعدد كبير من الاجتهادات والخلافات فلن نعرض لـه، أولا لان المجال لا يتسع له وثانيا لأننا نعتقد انه، وهو محل الاجتهاد – تـأثر إلى حد كـبير بعوامل ذاتية حـتى اصبح في بعض الحـالات "أحكاما سـلطانية" أكـثر مما هو تعزير إسـلامى، وهذا أمر حاله يطول..

وقد عين القـرآن الكـريم والسـنة الفعلية جـرائم الحـدود وهي السـرقة، والزنا والقذف، وشرب الخمر، وقطع الطريق. ويضيف الفقهاء الـردة والبغي ولنا فيهما وجه نظر سنعرضها عندما الإشارة إليهما.

ولما كانت السرقة هى أكثر ما يتعرض له المجتمع، وكان الأغراء عليها من أكـبر دواعي الفساد في المجتمع سـواء جـاء من إشـاعة القلق والخـوف أو تيسـير الكسب السهل الحرام فقد شدد الإسلام في عقوبة هذه الجريمة، غلقاً لبابها وحسماً لشـأفتها وحماية المجتمع منها. وإبعاداً لمن يوسوس له الشـيطان.. أو يداعبه الأغـراء. وسـنري أن العقوبة على قسـوتها، وعلي أننا لا نتقبلها إلا على أسـاس الضـرورة المؤلمـة، هي بعد.. أفضل حل يكمن أن يتخذ إزاء هذه الجريمة..

ومع أن عقوبة الزنا اقسي واشد من عقوبة الســــــرقة إلا أن طبيعة الجريمة واشـتراط أدلة تكـاد تكـون مسـتحيلة الإثبـات، وهي رؤية أربعة أفـراد لإتمـام الفعل الجنسي بالكامـل، فـإن رأي الأربعة أن الفعل لم يصل إلى تمامـه، فـان الحد يسـقط، وإذا رأى ثلاثة الفعل الجنسي حـتى نهايته ولم ير ذلك الرابع تمامـــا، بطلت الشـــهادة وعوقب الثلاثة بعقوبة القذف! نقول أن اشتراط هذه الأدلة كاد أن يجعل هــذه العقوبة معطلـــة، إلا إذا أصر مقترفها على الاعــتراف، وتمسك به رغبة في أن يكفر بدمه وان يظفر بمغفـرة تتناسب مع هـذه التضـحية.. ولو قسـمت على سـبعين لكفتهم على حد تعبير الرسول، أو ليضمن بها الجنة في رواية أخرى.

أما القذف – والمقصود به القذف بالزنا – فعقوبته ثمانون جلـدة ومن المهم هنا أن نوضح أن جلدة النبي تختلف عن جلدة الجيش البريطاني ذات "الثمانية ذيـول" كما يقولون، ففي بعض الحالات لم تكن هناك "جلدة" إطلاقاً، ففي نيل الأوطار للشـوكاني مثلا جاء أن النبي جلد شارب الخمر بجريدتين نحو أربعين. فكلمة "جلــد" هنا لا تختلف عن كلمة "ضرب".

ولم يـنزل في شـارب الخمر حد - ولكن عنـدما نـزل النهي كـان شـارب الخمر يضرب "علقه" فالروايات مجمعة على أن شارب الخمر عندما كان يؤتي به إلى النــبي كان يأمر بضربه حيثما اتفـق. وقيل إنه ضـرب أربعين نعلا، وجعلها عمر أربعين جلـدة.. ثم ثمانين لما فسق الناس. وعلي هـذا فتعـيين العقوبة بأنها الجلد ثمـانين أو أربعين لا يعد حداً كحد السرقة، أو الزنا، ويمكن النظر إليه فى ضوء جديد.

والحد الخـــامس هو حد الحرابة أو قطع الطريق والأصل فيه قوله تعــالى (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنْ الأَرْضِ(، وقد اتفق الفقهـــاء على أن المـــراد بها قطع الطريق بالسـلاح واختلفـوا في العقوبَة لاختلافهم في فهم "أو" وهل هي للتخيير أو للجمع أو للـترتيب على حسب الجنايـات، كما اختلفـوا في الصـلب وهل يكون قبل القتل أو بعده. ورأينا الخاص أن "أو" للتخيير وليست للجمع أو الترتيب إذ لو أريد الجمع أو الترتيب لنص على ذلك بأداة الجمع التي لا تقبل تأويلا، ولكن الحكمة هنا

هي تقديم عدد من البدائل حسب اختلاف الحالات. كما أن المقصود بالصلب فيما نري هو الـردع، وإنه إنما يكـون بعد القتل لا قبله ولان فكـرة القتل بهـذه الطريقة لأنه نـوع من المثله، ومن القتل صـبرا، وهو منهي عنه (حـتي بالنسـبة للحيـوان) وبعيد كل البعد عن منطق الإسلام، والصـلب هنا كقـول الآية (وَلْيَشْـهَدْ عَـذَابَهُمَا طَائِفَـةٌ مِنْ الْمُـؤْمِنِين (أسلوب من أساليب الردع..

ولآية الحرابة إستدراك هو قول الله تعالى.. (..إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقد جـاء هـذا الاسـتدراك بعد آية العقوبة مباشـرة ومضافاً إليها وهو يسقط الحد عند التوبة قبل إلقاء القبض عليهم أو التمكن منهم.

ويضيف الفقهاء إلى هذه الحدود حداً يقضي بـالموت على من يرتد عن الإسـلام وحجتهم في ذلك الآية (..وَمَنْ يَرْتَـدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَـافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(البقرة 218 وحـديث "من بدل دينه فاقتلوه" وحديث "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الـثيب الـزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة"

أما الآية فليس فيها ما يـومئ اقل إيمـاءة إلى عقوبة دنيوية ولو أراد الله عقوبة لنص عليها. كما نص على حـد السـرقة والزنا أو القصـاص.. ولا يجـوز في دين الله أن يستحل القتل وإهدار الدم بمثل هـذا الاسـتدلال السـقيم، فضلا عن أن هـذا الاسـتدلال يخالف عشرات الآيات الـتي تنص على حرية العقيـدة وحرية الإرادة مثل (وَقُـلْ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (. (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (. (وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًـا أَفَـأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ (. (لَيْسَ عَلَيْـكَ هُـدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْـدِي مَنْ يَشَـاءُ (.)فَـذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُـذَكِّرٌ * لَسْـتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ(.

وقد ذكر القرآن الارتداد في أكثر من آيـة، ولم يشر في آية واحـدة إلى عقوبـة، بل أحالها جميعاً إلى الله.. مثل قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْـدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى الشَّـيْطَانُ سَـوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ(. (يا أيها الـذين أمنـوا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْـفَ تَكْفُـرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَـاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُـولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِـمْ بِاللَّهِ فَقَـدْ هُـدِيَ إِلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(.

وتعرض القران لعقوبة الموت فى اكثر من مناسـبة فلم يوجبها إلا كنوع من القصاص أو عقوبة للزنا والقتل، ولو كـانت الـردة تـوجب هـذه العقوبة لنص عليها جنباً إلى جنب قتل النفس والزنا بعد إحصان.

وكما أن القرآن الكـريم لم ينص على عقوبة للـردة فلم يـرد في السـنة الفعلية شيء من هذا. فلم يوقع النبي (عقوبة بالفعل على شخص ما لأنه ارتـد، وعلي العكس لقد ارتد عبد الله بن سعد ابن أبى سرح وكان قد اسلم وكتب الوحي للنبي ثم فر إلى قريش وارتد وأخذ يندد بالنبي(ويحـرض قريشا على المسـلمين ويقـول لهم أن دينكم خير من دينه فاهدر النبي دمه، فلما كان فتح مكة لاذ بعثمان بن عفان وكـان أخـاه من الرضـاعة فغيبه حـتى اطمـأن النـاس وأحضـره إلى النـبي، وطلب له الأمـان فصـمت الرسول طويلا ثم أمنه فاسلم. ولو كان هناك حد لما قبل النبي شفاعة. كما قــدم إلى النبي رسـولا مسـيلمه الكـذاب بكتابه الـذي يقـول فيه "من مسـيلمة رسـول الله إلى محمد رسـول اللـه. سـلام عليك أما بعد فـإنى أشـركت في الأمر معك وان لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم يعتدون"، فقـال لهما النـبي ما تقـولان أنتما فقالا نقول كما قال فقال أما والله لـولا أن الرسل لا تقتل لضـربت أعناقكما فلو كان هناك حد لما أعفتهما صفتهما لأنهما ليسا مجرد نقله، وإنما هما أيضاً مؤمنان بهـذا الشرك[29].

---

[29] 29. وهناك حالات عديدة أخرى ضمناها كتابنا " الإسلام وحرية الفكر" الصادر فى 1999. "إضافة خاصة بالطبعة الثالثة"..

ويشهد لهـذا كله أن الإيمـان يتعلق بـالقلب والنيـة. وان أى إرغـام لا يجـدي. بل يفسد الضمائر، فالتدخل فيه بالإجبار لا يفيد، بل يخالف حكمة الإيمان.

أما الأحـــاديث الـــتي جـــاءت بقتل المرتد فهي أحـــاديث آحـــاد، ونحن لا نعلم ملابساتها. وقد يراد بها الردة المسلحة والمناوئة. ولا سيما وان بوادرها كانت قد بــدت في آخر حياة النبي وهو ما ذهبت إليه أبن تيميه وفي الحـديث إلى جـانب التـارك لدينه "المفارق الجماعة" وقد يفهم من حديث "من بدل دينه فاقتلوه" أي ردة على الإطلاق فلو أسلم مشرك أو مسيحي أو يهودي لـوجب قتلـه! وهو أمر لا يسـتقيم ومع كل هـذا فهنـاك من يـري أن أحـاديث الآحـاد لا يعمل بها في العقائـد. ولا يجـوز لها أن تصـادم الآيات المتكررة، وروح الإسلام.. وحكمة الإيمان، وحرية العقيدة...

ولهذا فنحن نجـزم بوجـود "حلقة مفقـودة" تحـول دون حجية الحـديث. ولا نـري عقوبة جنائية في مثل هذه الحالة، ومن يستغن عن الإسلام، فالإسلام غنى عنـه.. ومن يرفض منة الإيمان فإنما يجني على نفسه، ويحرمها..

ويضـــيف الفقهـــاء كـــذلك حـــداً هو حد البغي. ويبنونه على الآية الكريمة (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْـدَاهُمَا عَلَى الأُخْـرَى فَقَـاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) وليس هذا حداً بالمعنى الجنائي، وهو يصـور أفضل تصـوير ما يمكن أن يتبع في حالة القتال بين فئتين مسلمتين، وهي أصـلح قاعـدة يمكن أن يقـوم عليها حلف إسلامي يحول دون الانشقاق والثورات بين الدول الإسلامية، ولو طبقت الآية لما حـدثت الحـرب في باكسـتان، ولما وجـدت يمن جنوبية وأخرى شـمالية، أو على الأقل لسادت بينهم جميعاً علاقات الأخوة الإسلامية.

ويلحظ الإنســان عند قــراءة ما جــاء بهــذه الموضــوعات بــالمراجع القديمة أو الحديثة على ســواء أن العناية انصـبت على التفاصـيل والفــروع والقيــاس والاجتهــاد والتخريج والتأويل وغير ذلك من "عدة" الفقهاء. دون إعطاء المصـادر الرئيسـية الثلاثة حقها. وهي **كتاب الله. والسـنة الفعلية أو الثابتـة. وروح الإسـلام،** وقد نسج معظم الكتـاب المحـدثين على هـذا المنـوال، لان معظمهم من المحـامين أو القضـاة الذين تعودوا على التسليم للشروح وان دورهم هو البحث عن نصـوص الشـراح والأخذ بها دون إبداء الرأي فيها فـالزيلعي لـديهم مثل "دالـوز" مثلا، ما أن يـرد نص منه حـتى يبادروا بالاستشهاد به ونقل عبارته بنصها، وقد يغلب على بعضهم مسـحة من القسـوة أو الجمود أو التسليم اكثر من التحقيق.. ويمكن أن يقـال بصـفة عامة أن الـذين كتبـوا عن الشريعة الإسلامية من القضاة والمحامين "المدنيين" اكـثر "تقليديـة" واتباعـاً من كبار الشيوخ والفقهاء الذين عالجوا الموضوع، والذين لا يأخذون قضية مسـلمة أقـوال الشــراح والفقهــاء.. وبين يــدينا كتابــان لأســتاذين فاضــلين محققين **أولهما** "كتـاب التشـريع الجنـائي الإسـلامى مقارنـاً بالقـانون الوضـعي" للقاضي الشـهيد عبد القـادر عودة، **والثاني** كتـاب "التعزير في الشـريعة الإسـلامى" للقاضي الـدكتور عبد العزيز عـامر، وقد جـاء بأولهما مثلا.. "ومن المتفق عليه بين الفقهـاء أن لفظ أيـديهما يـدخل تحته اليد والرجــل" ص 652 ج 1، وكــان يجب عليه أن يحقق هــذا ويــذكر رأيــه. والمفـروض أن لا تنسـحب الكلمة إلا على معناها ومـدلولها اللفظي ولا يجـوز أن تمتد إلى غيرها، وخاصة إذا كـان الآمر أمر عقوبـات، وقد أورد المؤلف العبـارة كأنها شـيء بديهي مسلم به. وكان الأجـدر به أن يحقق نقطة كقطع اليد اليسـرى بـدلا من اليمـني مثلا تيسيراً للمذنب مواصلة العمل، وخصوصاً وان الأثر المـادي والنفسي للقطع واحد في الحالتين تقريباً.

كما قال عند الحديث عن العفو "ليس للعفو أي اثر على الجرائم التي تجب فيها عقوبات الحـدود. وليس للعفو أثر على هـذه العقوبـات سـواء كـان العفو من المجـني عليه او من ولي الأمر. فالعقوبة في هـذه الجـرائم لازمة محتمـة، ويعـبر عنها الفقهـاء بأنها حق الله تعـالى لأن ما كـان حقـاً لله امتنع العفو فيه وإسـقاطه" ونحن نفهم أن يكون غرض المؤلف حسم "المحسوبيه" والتفرقة بين الناس بحيث يطبق الحكم على

الفقراء ويستثني منه الأغنياء، وهو أمر نقره عليه. ولكن إيراد الفقرة بهـذه الطريقة لا يعطي هذا المعني.

وكـان يجب حسـما للظنـون والشـكوك أن يشـير ضـمن الفقـرة نفسـها إلى الملابسات التي تحوط هـذا التشـدد والإطلاق مثل توفـير البيئة الإسـلامية الـتي تحقق العدل. ولعل مثل هذه البيئة لم تتوفر للمجتمع الإسلامي إلا في فترات قليلة جداً مثل عهد الخلفاء الراشدين، وبعض الولاء والأمراء المعدودين. وقد أوقف عمر بن الخطـاب حد السـرقة عـام الرمـادة، ولم يقطع أيـدى غلمـان حـاطب رغم إقـرارهم بالسـرقة. وهناك روايات عن أن النبي أمر بإيقـاف حد السـرقة في دار الحـرب أي عنـدما يغـزو المسلمون وجاءت رواية عن عـدم رجم زان رغم اعترافه لأن هـذا الاعـتراف جـاء بعد اتهام آخر كاد أن يرجم، فأرتوى أن اعتراف الجاني الأصلي أنقذ حياة، فاستحق الإنقاذ.

أما تعبير حق الله، وحق العبد، فـإن ما يقر في النفس هو عكس ما أراده الفقهـاء! أي أن حق الله يحتمل الرحمة والعفـو.. لأن الله غـني عن العالمين. ولأنه الرحمن الرحيم. ولكن بعض الفقهاء. نصبوا أنفسهم حفظة على خزائن رحمة الله فحق عليهم قـول الله تعـالى (قُـلْ لَـوْ أَنتُمْ تَمْلِكُـونَ خَـزَائِنَ رَحْمَـةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَـكْتُمْ خَشْـيَةَ الإِنفَـاقِ) ويغلب أن يحمل تعبـير حق الله الفقهـاء وأولي الأمر على التمسك تعصبـاً، والتشـدد تظـاهراً ومن الخـير أن يلـتزموا تعبـير النـبي عنـدما غضب لوسـاطة أسـامه وقـال "أتحـدثنى في حد من حـدود اللـه" وهنـاك فـرق بين كلمة حد وكلمة حـق. لأن الحـدود متعينة ومحصـورة، ولكن كلمة حق تحتمل التأويل ويمكن أن تنسحب على الكثير،. وقد ذهب الفقهاء بعد إلى أن مراعاة الصـحة أوجب من الصـيام لمن يضره الصـيام، وإلي تفضـيل سـداد الـدين على الحج لمن لا يوجد لديه إلا مبلغ لا يكفي إلا للـدين وإلي إباحة قطع الصـلاة إذا تعـرض مـال المصـلي للتلـف. وكل هـذه الواجبات المؤخرة تدخل في باب ما يسمونه "حق الله".

وجاء في الكتاب الثاني "وهو كما ذكرنا- التعزير في الشريعة الإسلامى للقاضي الدكتور عبد العزيز عـامر "عند إيـراد حد الـردهـ "".. وإني أري في إمهـال المرتد أياما ثلاثة مصـلحة، إذ ربما راجع نفسه خلالها وعـاد إلى الحـق، واحتمـال عودته إلى الحق ترجح عندي هذا الرأي ولا سيما وأنه سوف لا يفلت من العقـاب بعـدها إن لم يتب، فلا ضرر في الإمهال مع احتمال المصلحةـ ص 18 فكيف جـاز للقاضي الفاضل أن يسـلم في هذا الأمر العظيم أمر الإعدام.. إعدام الحياة العضوية أو الحياة الأدبية لرأي فقهـاء لا يستند إلي نص صريح من القرآن، وإنما إلى حديث مرجـوح بفعل النـبي نفسه وروح الإسلام..؟ أفلم تقـرع آذانه الآية (أَفَـأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ) وكيف لم تتحرك في نفسه "الحاسة القضائية" الـتي تثـور قبل إصـدار كل حكم. وتـدفع صـاحبها لأن يراجع نفسه مـرة وأخـرى، وان يتلمس كل البـدائل ويتحـرى كل الظـروف؟ ولعله كان يجد شبهة يدرأ بها هذا الحد المزعوم في كلام الشراح أنفسهم. إذ يبـدو أن هنـاك فهمــاً مســبقاً لحالة الــردة يجمع بينهما وبين المحاربـــة، ففي بداية المجتهد ونهاية المقتصد مثلا نجد تعبــيرات مثــل".. المرتد إذا ظفر به قبل أن يحــارب". "و. أما إذا حارب المرتد" فهناك افـتراض في الحـالين يجمع ما بين الـردة والحـرب.. سـواء ظفر بالمرتد قبل حربه أو بعدها، ومثل هذه الشبهة، على ضعفها، تصـلح تكـأة لصـرف هـذه العقوبة القاسية، إن لم يشأ المؤلف أن يجتهد وأن يكـون له رأيه الخـاص المبـني على الآيات القرآنية وفعل النبي صلي الله عليه وسلم وروح الإسلام وطبائع الأمور.

لا جرم أن هذه الكتابـات وأمثالهـا، وما تنم عليه من تمسك بـأقوال المتأخرين. وعدم معالجة الأمور من كافة الزوايا، هي التي أثارت الخوف من الشــريعة الإســلامية في نفــوس البعض، وهو ما يجعلنا نصر على ضرورة العودة بالأحكام إلى الأصول النقية المحكمة من القـرآن والسـنة الثابتة واســتلهام روح الإســلام والنظر إلى أحكــام الأئمة الســابقين باعتبارها وجهـات نظر نأخذ منها ونـدع طالما هنـاك متسع وفسـحة دون تعسف أو تكلف أو استكراه.

وقد تصور البعض أن في العقوبات الإسلامية كالقطع والرجم "وحشية" ونحن – كما ذكرنا – نعترف بأن هذه العقوبـات ليست من العقوبـات المحببة الـتي يسر بها أي مشـرع، ولم يسـعد بها النبي (نفسـه. وقد روي المشـاهدون لأول حالة قطع أن وجه الرسول تغير تغيراً شديـداً... وفي رواية "كأنما ذر عليه الرماد "ولما قيل له يا رسول الله كأنك كـرهت قطعه قـال وما يمنعـني لا تكونــوا عونا للشـيطان على أخيكم. إنه ينبغي على الإمـــام إذا انتهي إليه حد أن يقيمـــه، إن الله عز وجل عفو يحب العفـــو" وليعفوا وليصـفحوا.. ألا تحبـون أن يغفر الله لكم، والله غفـور رحيم[30] ولكنها مع ذلك إحدى الضرورات البغيضة التي يفرضها شذوذ وانحراف بعض الأفـراد، ولا يكـون هنـاك مفر منها حرصاً على مصلحة المجتمع، وتطبيقها يحقق وقائيـاً وبالنسـبة لكل المجتمع الاسـتقرار والصـلاح، وأنها عند التحليل العقلي المــتزن البعيد عن التـأثر بـالعواطف العابرة لا تعدو أن تكون ضرورة بغيضة، ولكنها لازمة، أو أنها – في المدى البعيد أرأف، وأكثر إنسانية من العقوبات الحديثة. أو هما معاً. ويجب أن نصارح أنفسنا بأن الأسلوب القاسي- مع ملاحظة الضمانات - أفضل من التميع والنفاق والضـعف الـذي يكـون في حد ذاته جناية على المجتمع والجاني نفسه لأنه سـيؤدي إلى تضـاعف الجـرائم، وتعـدد العقوبات.

ومما تتميز به الشريعة الإسلامية:

أولاً: تطلبها وجود البيئة الإسـلامية الـتي تعف عن الجريمة فلو ارتكبت الجريمة لأن البيئة تفتقر إلى العدالة أو الأوضــاع السـليمة لأثر ذلك على تطـبيق الحــدود. لأن تطبيق الحدود افترض المجتمع الإسلامي وأوجد ضمانات عديدة – فإذا لم يتوفر هذا أو ذاك، انعكس ذلك على الحــدود، كما حــدث في الحــالات الــتي أشــرنا إليها من قبل (إيقاف عمر لحد السرقة في عام الرمادة، وإعفائه غلمان حـاطب من القطع.. الخ..). بل لقد اعتــبر بعض الفقهــاء أن السـرقة من بيت المــال لا تــوجب القطـع. لأن لكل المسلمين نصيباً فيه.

ثانياً: تشديدها في أدلة الإثبات تشـديداً كبـيراً وصـياغتها بطريقة تحقق للمتهم أعظم قدر متصور من الضمانات، وليس أدل على ذلك من محاولة ثـني المعـترف عن الاعتراف في حـالتي الزنا والسـرقة، وتكـرار الإقـرار ودرء الحد بـأي شـبهة واسـتبعاد الإكراه بحيث يسقط أي اعتراف، بل العقوبة نفسها، نتيجة لذلك.

فأين من هذا القانون الروماني "الذي كان يتخذ التعذيب وسيلة مقررة للحصول على الأدلة". كأن الأدلة التي يحصل عليها بالتعذيب يكون لها قيمة...

وتعتمد الشريعة الإسلامية بالدرجة الأولى على الإقرار الحر المتكرر، وقلما تلجأ إلى القرائن لاحتمال التباسها بعدد من العوامل.

ثالثاً: أن العقوبـات في الشـريعة الإسـلامية شخصـية، وأثرها يقع على شـخص المذنب، وبذلك يكون إحساس المـذنب بها مباشـراً، ولا تتـأثر بالعقوبة أسـرته وعائلته الـتي يمكن أن تتشـرد عند سـجن عائلهـا. فهي قد تكـون أقسى على المـذنب، وهو الجـاني، ولكنها أرحم بعائلته البريئـة. وهكـذا نـرى أن القسـوة في العقوبة صـادفت محلها، وجعلت العقوبة بمنأى عن أبرياء.

رابعاً: أن العقوبة سريعة وناجزه لا تعطل المـذنب نفسه ولا تقتضي من الدولة إقامة جهاز ممرد للعقوبات في شكل مصلحة للسـجون، تبتلع جهـود عشـرات الألـوف من الضباط والحراس والموظفين. ويدفع الشعب تكلفتها.

خامساً: أن مبـدأ القصـاص يحقق العـدل والـردع معـاً، العـدل لأن المـذنب لن يصـيبه إلا مثل ما فعل دون زيـادة أو نقصـان، والـردع لأنه عنـدما يعلم المـذنب بـذلك فسيكف، أو على الأقل سيهبط بأذاه إلى الحد الأدنى.

---

[30] **30. الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ص67 من الجزء 16.**

وقد حاولت الدراسات الحديثة أن تشوه صفحة القصاص ولكن الحقيقة أن العصر الحديث أبرز حكمة جديدة للقصاص، فقد فشت مع دخول صور الحكم الشمولية (الشيوعية والنازية.. إلخ) ظاهرة تعذيب المعتقلين، ولم تكن هذه الوصمة لتظهر لو علم هؤلاء الجلادون أن القصاص لهم بالمرصاد، كما لم تكن لتتكرر هذه الظاهرة لو فعل بهؤلاء الجلادين ما فعلوه بالناس، ولحسمت شأفتها..

سادساً: تأخذ الشريعة الإسلامية في حالات عديدة بمبادئ لا يأخذ بها القانون الوضعي مثل التوبة والقصد والعفو في حالة القصاص والتسوية بالحسنى قبل توصيل الأمر إلى السلطات. وتوصي بالتستر وتكره أن تشيع الفاحشة وتحرم التجسس على الناس.

سابعاً: أن العقوبة في الشريعة الإسلامية "مكفرة" ومطهرة فإذا وقعت بإقرار كانت تطهيراً له وتوبة، وإذا وقعت بغيره فإنها تعد أداء لدين وتكفيراً عن ذنب ولا تستتبع قط آثاراً تبعية، في حين أن العقوبة في القانون الوضعي تصم المذنب إلى الأبد بوصمة الجريمة، وتطلق في أثره وحشاً رهيباً وشبحاً مخيفاً اسمه "العقوبات التكميلية أو التبعية" وهذه العقوبات تحرم على المذنب الاشتغال بالمهن والوظائف حتى وظيفة "كناس" وتسقط عنه الألقاب وتوجب المراقبة وتجعله منبوذاً وتلاحقه في كل مسالك الحياة، وتدمر مستقبله وهي في الحقيقة أسوأ من العقوبات الأصلية

ثامناً: لئن كانت عملية الجلد أو القطع مؤلمة أو قاسية، أو حتى مذلة. فإنها رغم هذا كله قد تكون أخف من عقوبة السجن التي هي البديل الوحيد تقريباً عنها، والتي أصبحت عقوبة لمعظم الجرائم والجنايات، ففي السجون إذلال مادي يتأتي من الإسكان في أقفاص حديدية كأنما المسجونون وحوش كاسرة، والحرمان من المطعم إلا ما يقيم الأود، وبعد أن يتفنن "المتعهدون" والموظفون في سرقته وبخسه بحيث يصبح هو وطعام الحيوان سواء، والحرمان من أي مشروب، وحتى وقت قريب كان "عقب السيجارة" جريمة يعاقب عليها عقاباً صارماً، والنوم على الأرض أو "البرش" والتعرض للحشرات والهوام وعدم توفر وسائل النظافة مما يعرض صحة المسجونين للخطر أو يصيبهم بشتى الأمراض.

وهناك أيضاً الفصل بين الأزواج والزوجات مدداً قد تطول وتحوج المسجونين إلى الاكتفاء الذاتي الجنسي وأن يصبح الشذوذ الجنسي أمراً مقرراً لا محيص عنه تقريباً وبعد كل هذا فإن هناك عقوبات على الإخلال بالضبط والربط في السجون وقد تصل إلى حد الجلد. وهذه هي "عقوبة العقوبة" أو "الشيء لزوم الشيء" كما يقولون.. وكان لهم عن هذا غنى.

وفي السجون إذلال أدبي ينشأ من تقييد الحرية، وإساءة المعاملة والتكبيل بالأغلال الحديدية.

وأخيراً فهناك سوءة السجون الخالدة ألا وهي خلطة الأبرياء أو ضحايا الخطأ الأول بالعتاة من المجرمين والممرسين في الانحراف بحيث تصبح السجون مدارس إجرام.. وحلقات انحراف وهو أمر معروف ومسلم به..

قد يقال إن إصلاح السجون يمكن أن يقضي على السوءات، ولكن من الواضح أنه بقدر ما تصلح السوءات بقدر ما يقل الإحساس بمعنى العقوبة، وإذا ارتفع المستوى بالسجون إلى ما يماثل مستوى عامة الشعب، فإن السجون تصبح نوعاً آخر من البيوت أو الفنادق. وقد كان هذا أول حائل وقف في طريقنا عندما كونا "الجمعية المصرية لرعاية المسجونين وأسرهم" وأذكر أني عندما طالبت اللواء حسين كامل مدير عام السجون سنة 1954 بوضع أسرة بدلاً من البرش قال الرجل "كيف أسوي بين المجرم والجندي؟" كما تساءل أحد كبار الكتاب- الأستاذ التابعي – عندما طالبنا بإحلال لقب "نزيل" "محل لقب مذنب" عن الفرق بين نزيل السجن ونزيل الفندق..

دع عنك تخصيص جيش من الجنود والضباط والموظفين وإنفاق مبالغ ضخمة على الصيانة والإيواء وإشغال أماكن ومبان كبيرة في هذا كله..

وعقوبة السجن بعد إهدار للـزمن الثمين، كما هي تقييد للحريـة، فلو فرضـنا أن متوسط عدد المسجونين العمومين هو عشرين ألفـاً، وأن متوسط سـنوات العقوبة هو خمس سنوات لمثل ذلك مائة ألف سنة تضيع هدراً من حياة هؤلاء المسجونين.

لهـذا كله فـإن عقوبة الجلـد، أو القطـع، اكـثر رحمـة، وأبقي على الكرامة في المدى البعيد من عقوبة السجن، فضلا عن انتفاء العيـوب الأخـرى الكبـيرة الـتي تحفل بها عقوبة السجن.

تاسـعاً: أن الشــريعة الإسـلامية أعطت القاضي سـلطة كبـيرة فيما هو دون الحدود بحيث يمكنه في هـذه الحـالات أن يلحظ شخصـية الجـاني وظروفه الخ.. وهي في هذا أفضل من العقوبات الوضـعية المحـددة الـتي لا يكـون أمامها مجـال لملاحظة الظــروف الخاصــة. والتشــريع الإسـلامي في هــذا يجــري على نقيض ما افترضه في الحدود الـتي تمثل عـادة الكبـائر أو أشد الجـرائم إغـراء، وبهـذا تجمع الشـريعة ما بين الحدود المقـدرة الـتي لا تفـرق بين الأشـخاص، والتعزير المـرن الـذي يلحظ شخصـية الجاني.

عاشراً: تأخذ الشريعة الإسلامية بمبدأ "إِنَّ الْحَسَـنَاتِ يُـذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ" "فـأتبع السيئة الحسنة تمحها" ففي جميع الجنايات – باستثناء الحدود – يمكن معاقبة المــذنب بالصيام أو بعتق رقبة أو بإطعام كذا مسكينا، وهي عقوبات تشعر بغرم العقوبـة، وتفيد المجتمع في الــوقت نفســه، وكــان يجب على المشــرعين والفقهــاء المســلمين أن يتوسعوا في تطبيق هذا المبدأ الجليل، وأن يفتحوا له أبوابـاً تتلاءم مع تطـورات العصر خاصة بعد إغلاق أكبر أبوابه- وهو عتق الرقاب.

ولا يعـرف القـانون الوضـعي في هـذا البـاب سـوي الغرامة العقيمة والشـغل "مصاريف" وشتان بين هذين وما أبدعه الإسلام.

حادي عشر: تضمنت الشـريعة الإسـلامية عـدداً من المبـادئ الثمينة تحسـدها عليها أية شريعة أخري ولما يصل إليها بعد التقدم في معظم المجتمعات بحيث تطبقها تماماً مثل (**لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**)، (**لا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيد)، (لا ضرر ولا ضـرار**(ومثل **اسـتبعاد كل صـور التمـايز أمـام القضـاء بما في ذلك رئيس الدولة فنازلا، ومثل درا الحـدود بالشـبهات، ومثل إفسـاح المجـال للعفو في حــالات القصــاص والحض عليــه، ومثل تحــريم التجسس والإيقــاع بالناس، ومثل استبعاد الاستكراه في كل صـوره، ومثل حق الملـتزم في إملاء العقد بحيث تنحسم شافة "عقـود الإذعـان" الـتي تمليها الشـركات والهيئــات على العمــال والمســتهلكين، ومثل حق كل فــرد في تحريك الـدعوى العمومية تحقيقـاً لمبـدأ مسـئولية الدولة عند عـدم التوصل إلى الجاني بحيث لا يضيع دم في الإسلام..**

وهذه المبادئ كلها من مفاخر ودرر التشـريع وتنكشف أمامها شـموس الشـرائع الأخرى..

***

هـذا كله عن التشـريع الجنـائي الـذي يتعـرض عـادة لسـوء الفهم، إن لم يكن للهجوم..

وأما تشريع الأحـوال الشخصـية، وما يتعلق بـالزواج والطلاق، وشخصـية المـرأة الخ.. فسنشير إليه في الجزء التطبيقي من هذا البحث الذي نرجو أن يصدر قريباً[31].

أما التشريع المدني والاقتصادي فلا يتسع المجـال ألا لإشـارة مقتضـبة جـداً عن الزكاة وتحريم الربا. وهما تشريعان اقتصاديان متقـابلان يـوجب الأول التكامل ويحـرم الثاني الاستغلال. ولا يتسع المجال لمناقشة حكمة تحـريم الربـا، وحسـبنا أن نقـول أن

---

[31] **31. كما قلنا فى المقدمة، لم يصدر هذا الجزء الثانى، ولكن ظهر عدد من الكتب يعالج كل كتاب ناحية، ولعل آخرها "المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد الفقهاء".. إضافة للطبعة الثالثة "المؤلف.**

الفائدة "وهي الاسم العصـري المقنع للربـا" قد مكنت من توسـيع المعـاملات، وإقامة البنـوك وتحقيق الثـورة التجارية الـتي أدت بـدورها إلى الثـورة الصـناعية في القـرن التاسع عشـر، وقيـام ذلك البنـاء الاقتصـادي والإنتـاجي الممـرد بخـيره وشـره، نعمائه للمستثمرين وضرائه على العمال والمستهلكين. وعندما كان الاقتصـاد الرأسـمالي في الأوج يكتسح العالم بقوة وعرامة، كان من العسـير إصـابة "كعب أخيـل" فيه الـذي هو في الوقت نفسه حجر الأساس له - أعني الائتمان والنظام المصرفي الذي يقـوم على عمليـات الإيـداع والإقـراض وفتح الحسـابات و"خلق النقـود" كما يقولـون - وهي كلها تعتمد على الفائدة في الملاذ الأخير. ولكن القرن العشـرين تضـمن تجربـتين هـامتين. الأولى هيمنة الحكومات في الدول الاشتراكية على البنوك والائتمـان وإداراتـه، وأوضح ذلك أن من الممكن قيام اقتصاد مخطط يسـتغني عن الفائـدة، وأن الفائـدة ليست إلا وثنـاً من الأوثـان الـتي تعبد حينـاً حـتى تنكشف حقيقتها فتنبذ ويقـذف بها على الكـوم المتعال لحطام الآلهة المزيفة. والثانية الأزمة الاقتصادية العالمية الطاحنة الـتي بـدأت بتهاوي أحد البنوك النمساوية سنة 1929 وانتهت بإغلاق بورصة نيويورك وبنوكها سـنة 1933 وأوضـحت أن الاقتصـاد الرأسـمالي المصـرفي يقـوم على رمـال، وأن قوانينه الطبيعية التي تعمل آليا من عرض وطلب، ومنافسة الخ لا يمكن أن تترك لنفسها، وإلا أوقعت نفسها في مأزق، بل في مغرق[32].

وأوضـحت هاتـان التجربتـان بجلاء أن الفائـدة ليست بالضـرورة الـتي يتصـورها الاقتصاديون الكلاسيكيون. ومع هذا، فمن المسلم به أنه ما لم يكن هناك اعتقـاد ديـني يربأ بالناس عن الكسب السهل ويحول بينهم وبين الانسياق وراء وازع الـربح فسـتوجد الفائـدة بصـورة أو بـأخرى، فـإن هـذا هو ما أوجـدها بعد أن حرمتها المسـيحية طـوال القرون الوسطى.

وبالنسبة للتشريع السياسـي، فحسب الإسـلام فخـراً أنه وضع مبـدأ "الشـورى" وأنه لم يمض به إلى الديماجوجية المبتذلة، أو يضـيقه بحيث يحصـره في حـزب حـاكم ولكن أراد له الوسط النـافع والمفيد فهنـاك تقييد بأصـول يلـتزم بها الحـاكم والشـعب على السواء. وهناك حرية مطلقة في نقض كل التصـرفات. وهـذه النقطة الثانية تمثل مبدءاً ثانيـاً من مبـادئ الإسـلام السياسـية وهو السـماح بالمعارضة وتقبلها والعمل بها عندما تثبت صحتها.

---

[32] **32. لقد سقط الاقتصاد الاشتراكى القائم على التخطيط المركزى واستطاعت الرأسمالية أن تتغلب على أزماتها، وبذلك يكون المعول هو ما جاء فى آخر الحديث أعلاه.. (إضافة خاصة بهذه الطبعة) المؤلف.**

الفصل الثامن
والإسلام - أيضاً - تراث

مع أن العناصر الأربعة السابقة وهي العقيدة والعبادة والخلق والشريعة تمثل لنا المكونات النوعية للإسلام إلا إن هناك عنصراً خامساً لا يمثل ناحية نوعية، ولكن العمق التاريخي والبعد الأفقي معاً أي مرور ألف وأربعمائة سنة على الإسلام، وامتداده بحيث يغطى نصف الكرة الأرضية..

وقد لا يضيف هذا المكون شيئاً إلى جوهريات وأساسيات الإسلام فهذه الأساسيات هي ما تقدمه المكونات الأربع كما أنزلت على الرسول حتى بدأت صفحة التراث وأخذت كل يوم تضيف جديداً سواء جاء هذا الجديد نتيجة الاجتهاد أو الامتداد بحيث أصبح هذا المكون مورداً مفتوحاً يزداد مع كل يوم ومع كل انتشار جديد للإسلام، ويثري كل المجالات. وأصبح أشبه بالأغصان الوارفة لشجرة الإسلام التي يتفيأ ظلها وينعم بها مسلم العصر الحديث، بل لقد وصل درجة كاد أن يستحوذ على الأساسيات ويحتويها بمثل ما تحتوي الشجرة البذور. وكأن الأساسيات هي تلك البذور التي وضعها محمد منذ ألف وأربعمائة عام في جزيرة العرب، فنقلتها الرياح إلى كل بقاع الإسلام حيث نمت وربت وأصبحت أشجاراً غليظة ذات جذور متغلغلة وأغصان وارقه وذابت وتحللت فيها البذور دون أن تكون هذه الأشجار - ضرورة - مطابقة كل المطابقة للبذور. لأن عملية النمو تتطلب إلى جانب البذور التربة الصالحة والمناخ الملائم والرعاية الخ.. وهذه كلها ما يختلف من مكان إلى مكان. وهذا ما يوضح لنا كيف أن هذا المكون أصبح له وجوده الذاتي وحكمه الخاصة حتى وإن لم يقم إلا على المكونات الأربع الماضية. وكيف أن التمييز ما بين البذور الأصلية التي جاء بها محمد (والعوامل الأخرى التي أثرت على عملية النمو الطويلة.. إجراء له ما يبرره فليست كل الأجواء بالأجواء الملائمة.. كما أن هناك عوامل خارجية أو خاصة أثرت على نمو الأشجار.

وهكذا نجد أن أبرز خصيصتين للتراث هما:

أولاً: أن التراث يكاد يمثل "جسم" الإسلام وجرمه وظله الوارف ومادته الغزيرة التي يمكن أن نأخذ فكرة عنها عندما نعلم أن عمر الأساسيات لا يزيد على 23 سنة وهي مدة الرسالة المحمدية من البعثة حتى وفاة النبي في حين أن عمر التراث يقارب أربعة عشر قرناً كما أن المدة الأولى كانت محصورة في شخص النبي وما نزل عليه من وحي، في حين أن المدة الثانية كانت تغطي نصف الكرة الإسلامية من أسبانيا غرباً إلى الصين شرقاً.

ثانياً: أن التراث بحكم هذه المدة الطويلة والمساحات الواسعة والبيئات المختلفة التي نما فيها والنظم التي خضع لها الخ.. تضمن كثيراً من الكنوز الثمينة التي لا تعوض ولا تقدر بمال وكثيراً من الهراء.. والحشف البالي الذي لا يساوي شيئاً.

ويجب أن نعرف أن التراث ليس كما يفهمه البعض الأوراق الصفراء. التي تؤوى في مكتبات "الاسكوريال" أو "لايدن" أو حتى "الصنادقية"[33]، ولكنه أيضاً قيم ومبادئ ونظم وحضارة..

وليست المأساة في التراث هي وجود السيئ السقيم إلى جانب الحسن السليم، فإن هذا أمر تقتضيه طبائع الأشياء، ولكن المأساة في التراث هي أن النشء الإسلامي الحديث عزل عزلا تاماً عن تراثه، وقطعت كل السبل التي تؤدي إليه.. أو تصله به. فالثقافة المدرسية الحديثة لم تستطع أن تتخلص من المنطلق الذي تنطلق منه.. والنهاية التي تنتهي إليها التي وضعها الاستعمار، أو الفهم الأوربي. فهي تشير إشارات سريعة مقتضبة إلى الحضارات القديمة. ثم تبدأ البداية الحقيقية من اليونان

[33] 33. زقاق ضيق بحى الحسين بالقاهرة يكتظ بالمكتبات.

والرومان اللذين يمثلان من وجهه النظر الأوربية أصول الحضارة والفلسفة والقانون والنظم السياسية والإدارية ثم تعبر عنهما إلى القرون الوسطي "المظلمة" حتى عهد "الرينسانس" أو الإحياء أو النهضة التي بدأت في الجمهوريات الإيطالية ثم ظهور فكرة القومية، وبدأ الثورة التجارية وعهد الاكتشافات والفتوح الاستعمارية ثم الثورة الصناعية في بريطانيا والعصر الحديث. فإذا ذكرت الثورات فهناك الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية ثم الثورة البلشفية سنة 1917، ويطرز هذا التاريخ بأسماء قادة وزعماء وفلاسفة يكاد يكون تسعة أعشارهم بلا إستثناء من الذين أسهموا بصورة ما في استنزاف الشرق أو القضاء على استقلاله أو تشويه صورته، صحيح أن مناهجنا أدرجت في "القرون الوسطي "فصلا عن الإسلام وظهوره وتاريخ الدولة الأموية والعباسية، ولكن السياق العام والروح الأصلية للنهج لم تجعل لهذه الزيادة قيمة كبيرة.. والوضع أسوء بالنسبة لطالب الجامعة، فهو يدرس على يدي أستاذ حديث أو قديم العهد بالثقافة الأوربية التي تشربها في إحدى جامعاتها، وهو يكلف بالرجوع إلى مراجع أجنبية، وهناك كليات تدرس موادها باللغة الإنجليزية.

وتكون النتيجة أن أستاذ الجامعة، وخريج الجامعة، وطالب الجامعة كلهم سواء في الجهل بالتراث. بل إنهم لا يكادون يتكلمون عربية سليمة..

وليس الأمر أمر مناهج مدرسية أو أكاديمية، ولكنه أمر ثقافة عامة تنتظم الفنون والآداب التي تكاد تكون مستوردة أو ممصرة تطغي عليها قلباً وقالباً الروح الغربية، قلباً لان مثلها العليا والقضايا الأساسية التي تعالجها أقرب إلى المجتمع الغربي منها إلى المجتمع العربي، وقالباً لأن الصور التي تتقمصها بعيدة عن الذوق والطبع الإسلامي سواء في ذلك الشعر المنثور، أو موسيقي الجاز، أو صور القسوة والتعذيب والتحلل التي تطفح بها الروايات السينمائية الأمريكية أو المستوحاة من الأمريكية. ونتيجة لهذا كله لوث الذوق العربي وسرت الهجنة إلى الأساليب العربية، فلا يكاد الكاتب أو الشاعر يقيم لسانه أو يأمن الخطأ واللحن ولولا المراجعات والتصحيحات المتكررة التي تقوم بها دور الصحف والجرائد والنشر لرأي القراء الأعاجيب..

ونشأ عن هذا كله تيار جديد جارف عصف بكل ما هو قديم.. وطارده وألجأه إلى أضيق المسالك. إلى الحواري والأزقة والقرى، بينما انفرد هو بالشوارع الرئيسية والميادين العامة.. حتى كادت الروح الأصلية أن لا تجد ملجأ.. أو ملاذاً إلا قلب الفلاحة الأمين حيث يقر تحت طبقة من الغشاوة المنفرة تمتزج فيها الخرافة بالحقيقية. وحتى هذا الملاذ الخير، أخذ يطارد أيضاً، وهاجمه الجديد في عقر داره، بل في عقر كوخه المتواضع، عن طريق الراديو الترانزيستور...

وأذاب هذا كله العرف التقليدى والآداب المتوارثة التي كانت تربط أفراد المجتمع وفئاته بعضهم ببعض، فتحللت الروابط والأواصر. فقيلا كان الأغنياء يرون عليهم التزاماً أدبياً نحو الفقراء، وكان الصغار يوقرون الكبار، وكانت الزوجات يثقن فى أزواجهن، ويستمعن لهم ويوقرن آباء وأمهات أزواجهن. وبهذا الفهم أمكن التغلب على صعوبات الحياة وشظفها. وإنه لمن أهم الأمور أن نوضح أن العلم والمال ليسا وحدهما وسائل حل المشكلات أو توفير السعادة. فقد يتيسر العلم، كما قد يتيسر المال، ولكن هذا لا يحل المشكلات، على العكس لعلها أن تزيد وتتفاقم. وقد كان الإيمان بقيم مسلم بها ومجمع عليها والفهم المتبادل والثقة أقدر على حل المشكلات وتحقيق الوئام.

وبالطبع، فليس كل جديد ضار، فحتى أكثر المحافظين يعترفون "بالبدعة الحسنة " وبأنه "لابد للزمان أن يتنفس" ولكن المؤسف أننا لم نجعل المناط هو القيمة أو الفائدة، ولكن الجدة فحسب، كائناً ما كانت هذه الجدة، وحتى لو كانت تقليداً أعمي أو تزييفاً فجاً فقد نفضل كلمتي "الهمبرا" "وكايرو" على كلمتي "الحمراء" و"القاهرة" وهكذا نخرج من النقيض إلى النقيض.. من أن كل جديد بدعة.. إلى أن كل قديم لعنة...

***

وقد ارتأى البعض أن إصلاح هذا الوضع يكـون ببعث الـتراث ونفض الغبـار عنـه، وإخراجه إلى نور الحياة، ولكن الحقيقة أن هـذه العملية ليست - كما تصـوروا - عملية مادية أو أكاديمية، ولا هي بـالتي تتحقق بطبع بعض المراجـع. إن الـتراث - كما ذكرنا - مبادئ وأوضـاع وتقاليد وقيم، والمهم هو إحيـاء هـذا كله في نفـوس الشـباب، وحملهم على الإقبـال عليه والإيمـان به(34) وهنا نجد فضل الإسـلام، فهو المعـبر ما بين العصر الحديث.. والتراث القديم، وهو القاموس الذي يفسر مفردات هذا التراث، وما لم تتقد جذوة الإسلام فإن عالم التراث كله سيصبح مظلماً.

وهذا لا يعني الأخذ ضرورة بكل ما تضـمنه الـتراث لأن بعض الـتراث يسـمو إلى القمة والذروة وبعضة الآخر في الحضيض. وسنضرب المثل بنظامين من الـتراث كـان من الممكن أن نصل حاضرنا بهما.. هما "الحسبة" و الأوقاف الخيرية "فنحن نقـرأ عن نظم التفتيش والمراقبة للأسـواق والشـئون البلدية والاجتماعية على أسـاس أنها نظم مستحدثة. في حين أن نظام الحسبة كان يحقق هذا كله على أفضل صورة وقد تحدث بن خلدون عن واجبات المحتسب فقال.

"... يبحث عن المنكـرات ويـؤدب على قـدرها، ويحمل النـاس على المصـالح العامة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السـفن من الإكثـار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسـقوط بهـدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيـدي المعلمين في المكـاتب وغيرها عند ضـربهم للمتعلمين".

ومن هـــذا يتضح أن مهـــام المحتسب تضم شـــئونا بلديـــة، وثقافية واجتماعية وصـحية. وقد يتصـور أن هـذا الجمع قد يفسح مجـالا للفوضى أو يحـول دون التخصص المطلـــــوب. ولكن الحقيقة أن ذلك هو ما يحـــــول دون تفتت المســـــئولية، وتميع الاختصاصات وتعدد الرآسات، وما يجره هـذا كله من تعقيد وتسـويف. وهـذا الجمع هو ما اخذ به أخـيراً في فكـرة الحكم المحلي، وتجميع الخـدمات في "المحافظـة" وليس في هذه المهام كلها ما يتطلب تخصصاً لا يتوفر للشـخص المتمـرس وصـاحب الخـبرة والتجربة في الشئون العامة.

ونقطة الإبداع في هذا النظام صدوره **"احتسابا"** ومن هذه الصـفة أخذ اسـمه. ولكنه في الفترات الأخيرة فقد هذه الصفة وأصـبح المحتسب موظفـاً عموميـاً. ويبـدو أنه لم يكن مناص من ذلك، وإن أفقده لمسة الإبداع والمبادأة التي افترض الإسلام أن تصدر عن الضمير الاجتماعي للمسلم واستشعاره لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهناك سـبيل للعـودة إلى الخط الأساسي والفكـرة الأصـلية للإسـلام، ذلك هو إيجاد وظيفة محتسب فخرية في كل "شياخة" أو جزء من شـياخة توكل إلي أحد كبـار الشخصـــيات في هـــذا الموقع ويكـــون من ســـروات الناحية أو شـــيوخها أو موظفيها المحـــالين على المعـــاش، والمهم أن تتـــوفر فيه شـــروط " العدالة " الإســـلامية.. وأن يظفر بتقدير واحترام أهالي ناحيته ويمنح اللقب الفخري "المحتسب" ويعطي سلطات معينة ومحددة ويسير في رفقته ممثل للسلطة التنفيذية ويمارس اختصاصـاته بطريقة فورية وناجزه. ولا يخالجنا ريب في أن هذا النظام سيسد نقصـاً بالغـاً. وأنه جـدير بـان يكون أفضل وأنفع من النظـام البريطـاني العريق - نظـام قضـاة الأمن، أو الصـلح كما يطلق عليهم فى بعض الحالات.

ووجود المحتسب لا يقضي على واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر، لان المحتسب يقوم بمهمة "اجتماعية" ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالطريقة الـتي أوجبها النـبي على كل واحد من المؤمـنين واجب فـردي. ومن هنا انصـبت مهمة المحتسب على المجـــالات الاجتماعية الـــتي تخضع لهيمنة الســـلطة وتقـــوم بأحكامها وعقوباتهـا، وليس له دخل في شـئون العبـادة الـتي لا تـؤدي بـوازع السـلطان.. ولكن بـــوازع القـــرآن، وقد حمت فطنه بن خلـــدون من أن يقع فى وهم أن مما يـــدخل في سلطة المحتسب دفع الناس إلى الصـلاة والعبـادة وقمعهم عند الإهمـال أو المخالفـة. فإن هذا أدخل في باب النية والضمائر والقلـوب، ولا تجـوز العبـادة كرهـا.. ولا الصـلاة

[34] **34. أنظر الملاحظة فى هامش ص إضافة للطبعة الثالثة – المؤلف.**

جبراً.. ولا الصوم تظاهراً فإن هذا مما يدخل في دائرة لأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يقوم به الفرد تطوعاً، ويجب أن يقوم به بالحكمة والموعظة الحسنة، وهي الطريقة التي أمر بها القرآن.. ووجه الله تعالى أنبياءه للأخذ بها. واعتقد أن لو حطم أحد الغيورين مثلاً تمثالا أو زجاجة خمر لزيد من الناس على أساس أنه منكر، وأنه استخدم يده في إزالته تطبيقاً للحديث المشهور "من رأي منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فقلبه، وهذا أضعف الإيمان" وحوكم أمام محكمة إسلامية لوجب أن يغرم الثمن ولحق عليه أن يدفعه لا من ناحية خطأ الفعل فحسب، ولكن لأنه لن تكون له قيمة إلا بالتضحية في سبيله. فلو علم أنه إن فعل ذلك فسيغرم، وفعله تضحية واحتسابا لكان هذا دليل صدق الإيمان ولأثيب على هذا في الآخرة. أما لو ترك لتجرأ على التهجم آمنا من مغبة عمله، ولما كان في ذلك فضل أو تضحية أو شجاعة، فضلا ن إنه سيفسح الباب أمام اجتهادات خاطئة أضعاف الصائبة. ولا يعني هذا تعطيل الحديث. فهناك حالات يتوجب فيها استخدام اليد كما لو شاهد الإنسان لصاً يهم بالقتل أو السرقة أو رجلا ينتهك عرضاً أو أمثال ذلك. ففي مثل هذه الحالات لابد من استخدام اليد، بل يصبح واجباً.

والنظام الثانى هو نظام الوقف الذي يماثل ما نسميه الخدمة والتأمينات الاجتماعية أو الضمان الاجتماعى وكان يعني بمجالات قد لا تقوم بها الدولة.. وتوسعت مجالات نشاط الأوقاف إلى درجة تصور أنفساح الضمير الاجتماعي لدي الواقفين، فقد روي البعض".. وكان هناك وقف لإعارة الحلي وأدوات الزينة للعرائس في الأفراح حتى لا يضطر العامة من الفقراء إلى أنفاق أموالهم في شراء ما لا طاقة لهم به أو الشعور بالنقص نتيجة لعدم المقدرة على اقتناء ذلك، وكان هناك ملجأ وقف مخصص للنساء اللاتي وقع شجار بينهن وبين أزواجهن فيلجأن إليه حتى يزول ما بينهن وبين أزواجهن فتعود المياه إلى مجاريها.. وكان هناك بعض الأوقاف لختان الأولاد، ووقف آخر لتوزيع الأكل والحلوى في شهر رمضان".

وجاء في كتاب "الاشتراكية الإسلام" للشيخ مصطفى السباعى ذكر لبعض الأوقاف التي تصور سمو العاطفة الإنسانية وقوة التكافل الاجتماعى الإسلامي نقتبس منها.

26- أوقاف للطب النفسي:

في مدينة طرابلس (لبنان) وقف لتوظيف شخصين يمران كل يوم على المرضي في المستشفيات ويكون عملها هوان يتحدثا بصوت خافت صامت يسمعه المريض بحيث يوهمانه انهما يتكلمان بصوت عادي فيما بينهما يقول أحدهما للأخر "إنى أري فلانا احسن منه بالأمس" فيقول الآخر "وإنى أري إشراق وجهه وعينيه أحسن مما كان يوم أمس. وهكذا" بحيث يسمع المريض ذلك فيعتقد صحة ما يقولون. وقد حدثني عن هذا الوقف مدير أوقاف طرابلس في إحدى زيارتي لها.

وكان في مستشفي السلطان قلاوون بالقاهرة فرقة خاصة للتمثيل الشعبي المضحك يقوم الممثلون بذلك أمام المرضي الذين تشتد آلامهم ويرتفع صراخهم فينسون الألم ويأخذون في الضحك، وكان فيه فرقة من المنشدين ذوي الأصوات الجميلة يرتلون الأناشيد في منتصف الليل من فوق مئذنة المسجد بالمستشفي ليخففوا من آلام المرضى الذين يؤرقهم الألم ويمنعهم من النوم. كما كانت فرقة للموسيقي وقصاص يقصون القصص الشعبي على المرضي.

27- أوقاف للتزويج:

أي تزويج الشباب والبنات حين يعجزون أو يعجز آباؤهم عن القيام بنفقات العرس والمهر والجهاز فيتقدم الفتي أو الفتاة إلى قيم الوقف يطلب المعونة تلك، فيعطيه ما هو بحاجة إليه.

28- وقف الزبادي:

وهو خاص لإسعاف الأولاد والخدم الذين يكسرون ما يحملونه من الزبادي في الطريق إلى البيت، يذهب الصبي أو الخادم إلى قيم الوقف فيعرض عليه نموذجاً مما

كان يحمل فيعطيه عوضا عنها ويعود إلى أهله وقد اتقي شر العقوبـة، وقد تحـدث ابن بطوطة في رحلته عن هذا الوقف.

29- نقطة الحليب:

كان مما أوقف صلاح الدين الأيوبي وقف لإمداد الأمهات بالحليب اللازم وميزابـاً آخر يسيل منه الماء المذاب بالسـكر. تـأتى الأمهـات يـومين في كل أسـبوع فيأخـذون لأطفالهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر.

30- وقف للحيوان:

وكان خاصا بإيواء الحيوانات الأليفة في بيت وإطعامها كوقف القطط الذي كـان إلى عهد قريب موجوداً في (سومشا روجـه) بدمشق وكـان فيه ما يزيد على أربعمائة قطة من الفارهات السمان.

31- تطبيب الحيوان:

وكانت لعلاج الحيوانات المريضة وتطبيبها، ومن ذلك وقف (الموج الأخضر) الذي يقوم عليه الملعب البلدي بدمشق حاليا - فقد كان وقفا للخيـول والحيوانـات العـاجزة ترعي فيه حتى تلاقي حتفها.

هـذه الأمثلة توضح لنا أن الإسـلام قد غـرس في أجـدادنا وعيـاً إنسـانيا وتكـافلا اجتماعياً يضم كل المجالات التي يمكن تصورها، وشتان ما بين هذا الـوعي.. والشـعار الرأسـمالي "كل لنفسه وليأخذ الشـيطان الأخـير!" ولست ادري مـاذا فعلنا بالأوقـاف. ومن المحتمل أن النظـــام قد اســـتغل أو اســـيء تطبيقـــه، ولكن كل النظم عرضة للاســـتغلال. وكـــان من الممكن إصـــلاحها. ويبـــدو أننا جردناها من صـــفتها التطوعية وشخصيتها الخاصة وأذبناها في جهاز الدولة الضخم ببيروقراطيته وروتينه وتعقيده.

***

والتراث أيضا تاريخ..

وقد خُدم التـاريخ الإسـلامي في الفـترة الأخـيرة بعض الشـيء، واسـتهوي أقلام مجموعة من الكتاب الذين شادوا الإسـلام فغلبهم الإسـلام مثل حسـين هيكل والعقـاد ونفع الله بكتاباتهم كائنة ما كانت النوايا التي في القلوب والتي مردها إلى الله..

وبهـذه الطريقة تعـرف الجيل على عبقرية عمر وخالد وأبي بكـر، وهـذا الرعيل الأول فضلاً عما صدر عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه..

ولكن التاريخ الإسلامي حفل في عمقه وامتداده بأسماء ووقائع، بل وظـواهر لم يسمع المسلم الحديث بها.

فكم من طلبة الجامعة مثلاً يعلم شيئاً عن نور الدين الشـهيد الـذي أعد الـوطن العربي لملاقاة الصليبيين، أو السـلطان محمـود الغزنـوى فـاتح الهنـد.. أو الإمـبراطور اورانجزيب.. أعظم أباطرة المغول وأكثرهم إسلاماً.. والإمبراطور الـذي "عـاش طـول حياته متمسكاً بقواعد الدين الحنيف، محافظاً على سلامته، رحيماً بشعبه المسلم، لم يعن بفن حتى الموسيقى حرمها على نفسه وكان عازفاً بارعاً، آثر شـظف العيش في المأكل والملبس، حفظ القرآن وجوده وقـرأ الأحـاديث النبوية وأوصى بـأن يـدفن تبعـاً للسنة فلا يصـرف على كفنه سـوى ما كسـبه بيـده من حياكة الطـواقي، وأن لا يغطى نعشه بغـير قطعة من قمـاش الشـراع الخـام. وتـرك للفقـراء ثروته الخاصـة: ثلاثمائة روبيه هي كل ما كسب من نسخ القرآن الكريم[35].

---

[35] **35. انظر مقالاً ممتازاً للكاتب المبدع للأستاذ حسين فوزي بجريدة الأهرام 26/2/1971.**

وهناك ظواهر تاريخية تكاد تكون مجهولة مثل الدور الذي قامت به بعض الطرق الصــوفية كالسنوســية والتيجانية في نشر الثقافة والمعرفة وإذاعة الإســلام وإقامة ممالك أفريقية زاهرة، كما لا يزال تـاريخ الشـمال الأفـريقي مجهـولاً أو شـبه مجهـول لبقية مسلمي العالم سواء في ذلك تاريخه القــديم الحافل بالبطولة والحمية أو تاريخه الحديث الحافل بالمقاومة والكفاح..

ونتيجة لجهل النشأ الإسـلامي بتاريخـه، أصـبح تائهـاً، ضـائعاً، فاقـداً لجـذوره، لا يحس أصالة ولا اعتزازاً ويعيش عالة على تاريخ غيره.. وانطبق عليه قول شوقي:

مثل القوم نســوا تاريخهم — كلقيط عيَّ في القــوم انتسـاباً
أو كمغـلوب على ذاكـــرة — يشتكي من صلة الماضـي انقضاباً

***

والتراث كذلك فنون..

وأكثر الفنون حفاظاً على التراث - هي العمارة.. فقد كان إنشاء المســجد عمل ديــني، كما هو عمل اجتمــاعي وعمــراني.. وكـان البـدء في تخطيط المدينة هو وضع مسجدها... ثم إقامة المباني والأحياء حوله.

من أجل هذا حفظت العمارة عبر القرون روح الـتراث الإسـلامي، وأثـارت هـذه الظاهرة إعجاب الكثيرين فجاء في إحدى المقالات "ولقد دهش كاتب هذه السـطور - الذي لم يولد في مصر، ولا كان عند مولـده مسـلماً - عنـدما وفد إلى هـذه البلاد لأول مـرة، فـرأى المسـتوى الـذى بلغه الفن الـديني الحـديث في مصر وكيف أنه أرفع مما وصل إليه في بريطانيا بل في أى بلد آخر في أوروبـــا. ويبـــدو أن ذلك راجع إلى أن الفنانين المسلمين اليوم يعملون وفقاً لتقاليد حيه توارثوها جيلاً بعد جيل بغير انقطـاع على مدى قرون عدة. بينما في أوروبا نجد أن الطراز القواطي نظرية ميته عفى عليها طراز النهضة الذي عفى عليه هو الآخر الطراز الحديث"[36].

فمــاذا يعــرف النشأ المســلم عن مســاجده؟ كم واحد تفقد جــامع عمــرو بن العاص؟ كم واحد زار ذلك المسجد الشـامخ الممـرد الـذي يمثل جلال وعراقة وعرامة المعمار الإسلامي... مسجد السلطان حسن. هذا المسجد الذي اعتبره الكـاتب الفنـان الأسـتاذ حسـين فـوزي صـنواً لمعبد سـيتي الأول بأبيـدوس (العرابة المدفونـة) في التمثيل لعمارة مصر..

هل هنــاك شــيء يثـير الأسى أكـثر من أن تطلق عامة القــاهرة أسم "مــذبح الإنجليز" على مسجد السلطان العظيم بيبرس قاهر الصليبيين والتتار.

مــاذا فعلنا بتلك المنطقة الرائعة الــتي تبــدأ من بــاب زويلة لتنتهي بســيدنا الحسين.. والـتي تضم في مـدخلها مـنزل جمـال الـدين الـذهبي في جـانب.. ومسـجد المؤيد في الجانب الآخر..

لقد جعلنا منها "سـويقة" تـزدحم بالباعة الجـائلين من كل نـوع، وتعلق الأحذية و"الشباشب" بالجدران التي رفعتها، بخالص التقوى. والإيمـان.. والإتقـان، أيـدي البنـاء المسلم.

ما أكثر ما تحرك القلب وأنا أسير في بيت القاضي ونواحي الجماليــة.. كل حجر يكاد ينطق بقصة، كل ناحية مشهد.. أو فصل من التاريخ..

لماذا لا نجعل هذه المنطقة - منطقة تاريخيـة. أو كما يقولـون أثريـة.. ولما كـان لابد من اســتغلالها فليكن للعلم. فتصــبح شــيئاً كالمدينة الجامعية الأزهرية وتســتغل مساجدها الرائعة ككليات **فتكون هناك كلية "جامع المؤيد للشريعة أو لأصول الدين" والسلطان المؤيد يعد محدث روى الصـحيح عن السـراج البلقيـني**

---

[36] **36. مساجد الإسكندرية بقلم د يعقوب زكي – مجلة المجلة العدد 136 مارس 1968.**

وسـمع منه (أي من المؤيـد) الحافظ بن حجر وأدرجه في "المعجم" المفهـرس ضـمن مشايخه. وليس في جعل المساجد كليات غرابه، فإن كليات أوكسفورد.. تحمل أسماء مثل كلية "جسد المسيح" أو كلية "الثالوث" أو "كلية كل الأرواح" أو "كلية ماجدالين".

***

وهناك مجالات عديـدة أخـرى للـتراث وحلقـات مفقـودة ما بين علـوم ومعـارف العلماء المسلمين.. وعلوم ومعارف الفلاسفة والعلماء الأوروبيين.

وهنـاك الكثـير من المراجع وأمهـات الكتب الـتي تنتظر النشر أو التحقيـق، وقد قـدر أحد الكتـاب أن أمهـات المراجع في الفقه الإسـلامي وحـده الـتي تنتظر النشر والتحقيق تصل إلى ستة آلاف[37].

ولا ريب في أن أقرب ما في التراث إلى الإسلام هو ما جـاء عن الإسـلام نفسه عقيدة.. وعبادة.. وشريعة.. منذ أن سجى الرسول الكـريم في روضـته حـتى الآن. بما فيه مواقف أبي بكر، واجتهادات عمر، وقضايا على ثم المـذاهب الإسـلامية من معتزلة أو خوارج أو مرجئة أو شيعة حتى ظهور المذاهب الأربعة المشهورة، أو ما لم يقـدر له البقاء كالظاهرية أو غيرها.. وما تلا هذه الأجيال من أجيال يبـدأ الواحد منها حيث انتهي سابقه، ويضيف على المتن شرحاً ليوضع على الشرح حاشية لتطرز الحاشـية بحاشـية أخري..

إن هـذا الـتراث الضـخم الـذي فنت فيه أعمـار.. بعد أعمـار وخـدم بكل تقـوي وإيمان، وجذب عباقرة العالم المسلم لا يزال الكثير منه محفوظاً في مكتبات العالم.. وما نشر يتطلب الشـــرح والتحقيـــق. حـــتى يمكن لمثقف العصر الإلمـــام بطريقة السـابقين. ولا يخـالجني شك في أنه عنـدما يتجلي الفقه الإسـلامي فستشـرق على القانون الدولي شمس جديـدة ينكشف أمامها القـانون الرومـاني أو قـانون نـابليون أو غيرهما من القوانين..[38].

ونحن على تقديرنا العظيم لهذا الـتراث وإعجابنا بـه، فإننا لا نـري أن هـذا يعـني الالتزام الحرفي به، أو إسباغ صفة القداسة عليه. وإنه لمن أعظم الخطأ أن نتصور أن أحكـام الأئمة والفقهـاء ملزمة شـأنها شـأن النص القـرآني المحكم، أو السـنة النبوية الثابتة، فما كان الأئمة يتصورون هـذا، أو يضـعون كلامهم في مرتبة القـرآن والحـديث، ولم يترددوا قط في نبذ أي رأي قالوا به بمجرد علمهم بنص جديـد، أو حـتى ظهـور أي رأى افضل.

وقد يصـور ذلك ما روي عن أبى حنيفة أن رجلا عـرض عليه عـدداً من الفتـاوى كان قد أفتاه بها قبلا، فرجع عنها فقال له الرجل كيف هذا؟ قال كان رأيا رأيته فـرأيت العـام غـيره. فقـال الرجل افتـأمني أن لا تـري من قابل شـيئاً آخر قـال لا أدري كيف يكـون ذلك[39]. ومن المعـروف للعلمـاء أن الأئمـة، بل وجلة الصـحابة، لم يـدركوا كل الأحاديث أو الآيات أو الأحكام لأنهم لم يلازموا النبي ملازمة دائمة وإنما سمع كل واحد طرفاً أو نتفاً بقـدر ملازمتـه. ولا يسـتثني من ذلك الخلفـاء الراشـدون "فهـذا أبو بكر رضي الله عنه لما سـئل عن مـيراث الجـدة قـال "مالك في كتـاب الله شـيء، ولكن

---

37. **انظر مقالاً للأستاذ جمال العطيفى عن تقنين الشريعة بجريدة الأهرام العدد الصادر يوم 14/6/72.**

38. **لقد رأينا أخيراً أن التواكل والاعتماد على التراث اعتماداً كلياً حال دون استخدام العقل حتى صدئ عقل المسلمين، وأصبح الاتجاه لدينا هو تنحية التراث جانبا، والاعتماد على العقل والبدء من نقطة الصفر. ولم يعد أمامنا وقت حتى لتنقية التراث. فما ننفقه من وقت ومال وجهد فى ذلك أجدى به أن ننفقه على فكر يجابه تحديات العصر، والمجتمع بعد، ليس متحفاً للآثار القديمة ولكنه ساحة صراع بين قوى الحياة، ولا يحول هذا دون أن يعكف بعض الأكاديميين على التراث كما يعكف علماء الآثار القديمة عليها لمعرفة الماضى لا للأخذ بها فى الحاضر أو المستقبل. "إضافة للطبعة الثالثة " - المؤلف.**

39. **تأويل مختلف الحديث لأبن قتيبة ص 51.**

أسأل الناس "فسألهم فقـام المغـيرة بن شـعبة ومحمد بن مسـلمة فشـهدا أن النـبي أعطاها السدس، وهذا عمر بن الخطـاب رضي الله عنه لم يكن يعلم سـنة الاسـتئذان حتى أخبره بها أبو موسى الأشعري رضي الله عنه. ولم يكن يعلم أن المرأة تـرث من دية زوجها حـتى كتب إليه الضـحاك بن سـفيان أمـير رسـول الله على بعض البـوادي يخبره أن رسول الله أورث امـرأة أشـيم الضـبابي من دية زوجهـا، ولم يكن يعلم حكم المجوس في الجزية حتى أخبره عبد الـرحمن بن عـوف أن رسـول الله، قـال: "سـنوا بهم سنة أهل الكتاب"، ولما قدم سرغ وبلغه أن الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معـه، ثم الأنصـار، ثم مسـلمة الفتح فأشـار كل عليه بما رأي ولم يخـبره أحد بسنه حتى قدم عبد الـرحمن ابن عـوف فـأخبره بسـنة رسـول الله في الطـاعون وأنه قـال "إذا وقع بـأرض وأنتم بها فلا تخرجـوا فـراراً منها وإذا سـمعتم به بـأرض فلا تقدموا عليه" وهذا عثمان رضي الله عنه لم يكن عنـده علم بـأن المتـوفى عنها زوجها تعتد في بيت زوجها حتى حدثته الفريعة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري بقضيتها لما تـوفي زوجها وأن النـبي قـال لها امكـثى في بيتك حـتى يبلغ الكتـاب أجلـه" فأخذ به عثمان[40].

وأفتى عثمـان وابن عبـاس وزيد وابن عمر وغـيرهم بأحكـام رجعـوا عنها عنـدما علمـوا بسـنة كـانوا يجهلونها "ومن اعتقد أن كل حـديث قد بلغ كل واحد من الأئمة أو إماما معيناً فهو مخطئ خطأً بيناً"[41].

ومع هــذا فنحن نعتقد أن فتح بــاب الاجتهــاد، ما لم ينظم، فقد يــؤدى إلى مثل الفوضى الـتي أدت إلى غلقـه. وإن لم يكن لنا العـذر الـذي كـان للأقـدمين، الذيـن لم تتوفر لهم وسائل الاتصال المتوفرة لنا..

وأتصور أن يعقد في كل عام مجمع للاجتهاد الإسلامي يحضره مجتهدون من كل الأقطار الإسـلامية يعرضـون وجهة نظـرهم دون إصـدار حكم فيها وتنشر محاضر هـذه الجلسات في الصـحف وتـوزع على الشخصـيات المعنية لتكـون محل دراسة ومناقشة في مختلف الـدول الإسـلامية، فـإذا حـال الحـول نسـقتها سـكرتارية المجمع وصـنفتها ولخصتها ووضعتها أمام الجميع ليعالج الموضـوع في ضـوء المناقشـات السـابقة. فـإذا تــبين للمجمع رأي جلي واضح أخذ به واعتــبر أنه رأي الجمهـور.. وإلا اجله إلى قابـل. وبهـذه الطريقة يمكن التوصل إلى مـذهب جديد يجمع حسـنات المـذاهب وتكـون له صلاحية خاصة بالنسبة للعصر، ويمكن لهذا المذهب أن يصبح المذهب "الرسمي" دون أن يكون هناك إلزام بأن يتبعه كل واحد. فـإذا أوضح التطـور أن هنـاك خطأ أو قصـوراً في ناحية من نواحي المذهب يتطلب التعديل عرض الأمر على الاجتهاد ليقوم بالتعديل المطلوب، شأنه في ذلك شأن أي قانون يسن ثم يتضح قصوره فيعدل بقانون آخر[42].

---

[40] **40. كتاب "الحديث والمحدثون" تأليف الشيخ محمد أبو زهو ص 29.**

[41] **41. المرجع السابق ص 29.**

[42] **42. قضى الأمر، واصدرنا "نحو فقه جديد" بأجزائه الثلاث ما بين 95-1999 بعد أن لم يتحرك أحد للتفكير فيما عرضناه هنا سنة 1972 والمفروض أن يكون ما جاء فى "نحو فقه جديد" مثار للمناقشة.**